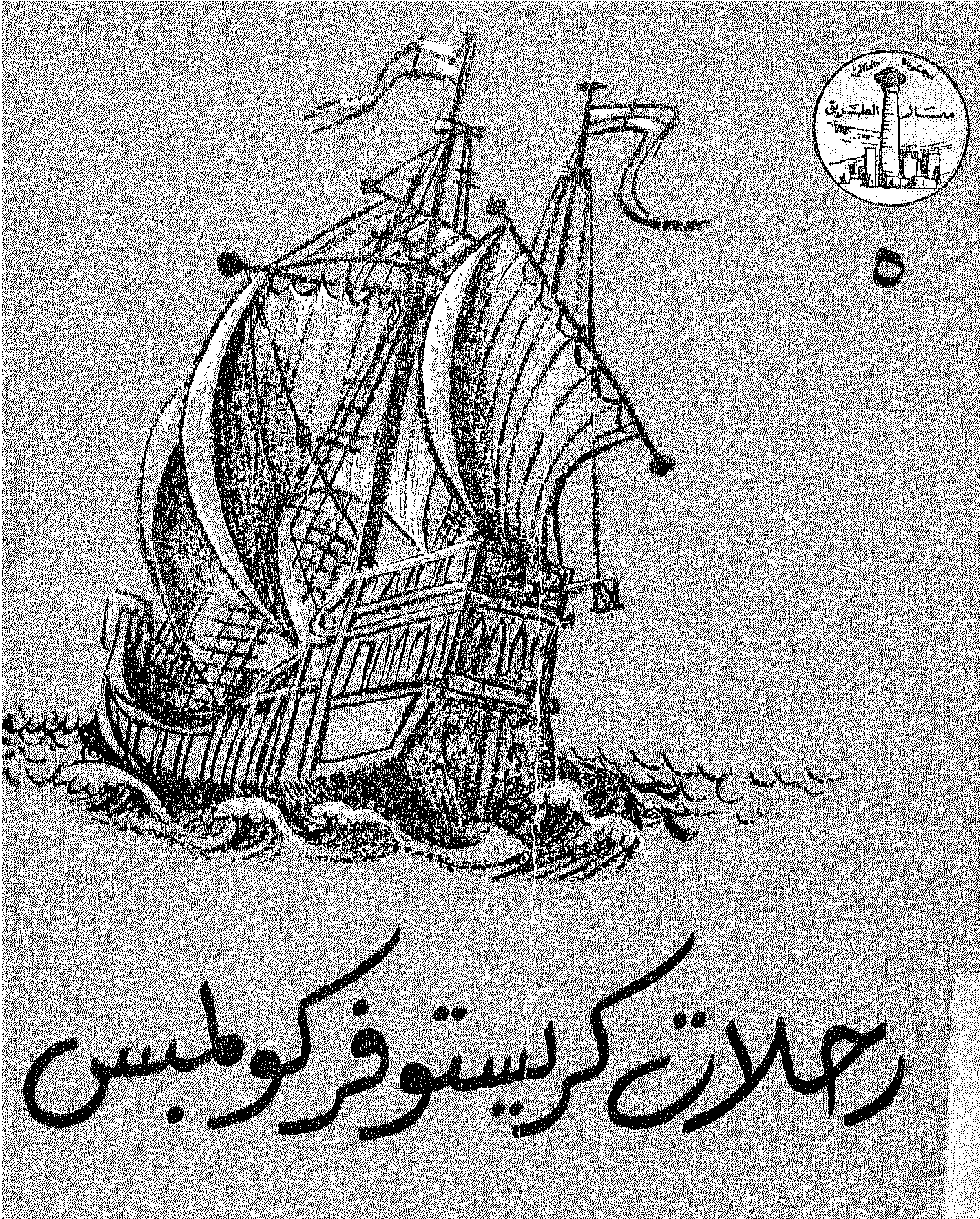


رحلات كريستوفر كولمبس

تأليف : ارمسترونج سبيري
ترجمة : رجائي نجيب مقار
مراجعة وتقديم : الدكتور زكي نجيب محمود

«معالم الطريق»
شخصيات وأحداث غيرت مجرى التاريخ
بإشراف الدكتور زكي نجيب محمود

(٥)

رحلات كريستوفر كولمبس

نشر هـــذا الكتاب بالاشتراك
مـع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
القاهرة ـ نيويورك
يناير سنة ١٩٦٣

رحلات كريستوفر كولمبس

تأليف

ارمسترونج سبيرى

ترجمة

رجائى نجيب مقار

مراجعة وتقديم

الدكتور زكى نجيب محمود



١٦٥ شارع محمد فريد ـ القاهرة

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف : أرمسترونج سبيرى

كان يعشق الرسم منذ صغره ، ولكنـــه اضطر أن يقطع دراســـته بمدرسة ييل للفن لتجنيده بالبحرية أثناء الحرب العالميــــة الأولى ، وبعد الهدنة ذهب الى نيويورك لدراسة فن الرسم حيث نمت موهبته • وقد أمضى سنتين متجولا فى جزر شمال الباسيفيك استطاع أن يخرج منها بمواد لكتبه • وفى عام ١٩٣٣ ألف كتابا اسمه « يوما ما مع مانو » حيث استطاع أن يجمع فيه بين هوايته ككاتب وكرسام • ومنذ ذلك الحين استمر فى رسم جميع كتبه مثل « الغابة الممطرة » و « قرية الرعد » و « القلب الشجاع » الذى نشرته المؤسسة •

المترجم : رجائى نجيب مقار

تخرج فى كلية الآداب جامعـــة القاهــرة ١٩٥٠ • عمل بالتدريس منذ تخرجه فى وزارة التربية والتعليم • انتدب للتدريس بمدارس التعليم المصرى بالسودان (١٩٥٩ ــ ١٩٦١) يعمل حاليا مدرسا بمدرسة السعيدية الثانوية •

المراجع وصاحب المقدمة : الدكتور زكى نجيب محمود

أستاذ المنطق ومناهج البحث بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وهو حاصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة لندن • مؤلف لعدد كبير من الكتب فى الفلسفة وفى النقد الأدبى • من

أهم مؤلفاته فى الفلسفة «المنطق الوضعى» و «خرافة الميتافيزيقا» و « نحو فلسفة علمية » و « حياة الفكر فى العالم الجديد » الذى أصدرته هذه المؤسسة . ومن مؤلفاته فى تاريخ الأدب ونقده « فنون الأدب » و « قصة الأدب فى العالم » . قام بترجمة كتاب « المنطق .. نظرية البحث » لجون ديوى ، وهو من الكتب التى نشرتها هذه المؤسسة .

نال جائزة الدولة التشجيعية لسنة ١٩٦٠ .

مصمم الغلاف : محمد سليمان التهامى

بكالوريوس الفنون الجميلة (قســم الزخرفة) يعمل مصمم ديكور . صمم عدة أغلفة للمؤسسة .

محتويات الكتاب

صفحة

هذا الكتاب بقلم الدكتور زكى نجيب محمود ٣

الفصل الأول ــ المأوى ٧

الفصل الثانى ــ رئيس دير لارابيدا ١٦

الفصل الثالث ــ القضية تجد من يرعاها ٢٩

الفصل الرابع ــ الحكم ٤١

الفصل الخامس ــ صاحبة الجلالة تبتسم ٥٠

الفصل السادس ــ ثلاث سفن تبحر ٦٤

الفصل السابع ــ بحر الظلمات ٧٩

الفصل الثامن ــ ما أروع خضرة الأرض ٩٩

الفصل التاسع ــ آخر رحلة طويلة ١٢٢

هـذه السلسلة

بقـلم

الدكتور زكى نجيب محمود

الرجال الأعلام والأحداث الجسام ، هى المعالم المضيئة ، التى يستهديها الرائى اذا ماكر ببصره راجعا ، ليرى كيف سارت الانسانية فى طريقها منذ فجرها حتى بلغت هذا الذى بلغته فى يومنا الراهن ، نعم ان تطور التاريخ قد كان مرهونا دائما بكد الجماهير وكدحها ، لكن طبائع الأمور تقتضى أن تتبلور تلك الجماهير الكادة الكادحة فى رجل ينطق بلسانها ويعبر عن وجدانها ، اذا ما كان الموقف موقف قول وتعبير ، ويضم فاعليتها ويجمع نشاطها تحت قيادته اذا ما كان الموقف موقف فاعلية ونشاط ، وهكذا يرى الرائى — اذا أرسل البصر الى الطريق التى سارت عليها الانسانية ابان تاريخها الطويل — يرى الرائى عندئذ أن ثمة معالم تحدد مراحل السير ، وهى معالم ان تكن تشمخ برءوسها فوق سطح الأشخاص والحوادث ، الا أنها نابعة من الطبيعة نفسها التى يتألف منها هؤلاء الأشخاص والحوادث ، فكأنما هاتيك الأعلام هى رءوس الموج فوق سطح البحر ، تعلو على محيطها المائى ، لا لأنها مختلفة عن ذلك المحيط ، بل لأن ذلك المحيط المائى نفسه هو الذى دفعها الى أعلى لتكون له الظاهر المرئى لمن وقف عند الشاطىء يرسل البصر .

ولقد أردنا بهذه السلسلة من الكتب أن نقدم الى شبابنا القارىء صورا موجزة لكنها قوية ناصعة ، لما نتخيره له من جسام الأحداث

وأعلام الرجال الذين نسجوا بخيوطهم نسيج الحياة كما نحياها اليوم: فمن الرجال من كشف قارة ومنهم من ارتاد محيطا مجهولا ، ومن الرجال من حرر بلاده ومنهم من خلص البشرية كلها من وباء فاتك ، أو من أنتج للبشرية كلها أثرا خالدا من علم أو من فن ، وكذلك قل فى كبريات الأحداث التى كان الحدث الواحد منها بمثابة نقطة التحول فى مجرى التاريخ كله : فما ظنك بما قد صنعه رجال (أو نساء) من أمثال الاسكندر الأكبر ، وجنكيز خان ، وجان دارك ، وماركو بولو ، ومارتن لوثر ، وليوناردو دافينشى ، وغاريبالدى ، وكولمبس ! ثم ماظنك بأحداث من قبيل موقعة ووترلو ، وماجنا كارتا (أو العهد الأعظم) ، وكشف القطبين ، وصعود الهملايا ، والانتصار على جراثيم الحميات ! تلك كلها قمم تلخص جهود الانسان فى صنع حضارته وثقافته .

ان الانسان الواحد العظيم ، والحدث الواحد الجسيم ، قد لا يكون « واحدا كالذى نعرفه فى سائر الآحاد عند العد والحساب ، لأنه قد يعدل الألف والألفين،قد يعدل الملايين بصفاته التى استجمعت صفات جنسه كله ، أو بآثاره التى يخلفها من بعده ، فاذا هى ثابتة الجذور لا تزول ولا تحول ، ولا وسيلة الى أن يعرف القارىء أوزان الناس والحوادث ، متى ترجح كفتها ومتى تشيل الا أن نهيىء له الفرصة فيلاقى هاتيك الحوادث وهؤلاء الناس لقاء مباشرا فى سلسلة الكتب التى نقدمها له : سلسلة « معالم الطريق » .

مقدمة

بقلم

الدكتور زكى نجيب محمود

كم ذا يستطيع ـ ياالهى ـ رجل واحد أن يصنع للحضارة البشرية كلها ، أجيالا تتلوها أجيال والى أبد الآبدين ! ذلك ان كان رجلا أوتى صفاء العقل ، ومضاء العزيمة ، فانهم ليعدون بألوف الملايين أولئك الذين يجيئون الى ظهر الأرض ليمكثوا حينا ثم يختفون ـ اذا حان الأجل ـ فى جوفها ، كأنهم الزبد الطافى يذهب جفاء بعد لحظات قصار ! ترى ماذا كانت صورة الحضارة اليوم لتكون لو لم يكن ـ ذات يوم ـ رجل بين الرجال اسمه كريستوفر كولمبس ، قد أرقت جنبيه فكرة عدها العقلاء عندئذ فكرة مجنونة ، وعدها العاطفون على الرجل حلما كالذى يراه فى نومهم الحالمون ؟! نعم ، ماذا كانت صورة الحضارة البشرية لتكون اليوم لو لم يعش بين الناس كريستوفر كولمبس ، فتصبح بفضله بين القارات قارة أمريكا ، فيحج اليها المهاجرون ، فلا تمضى على هجرتهم ثلاثة قرون حتى تأخذ الحضارة الانسانية فى مرحلة جديدة من مراحل سيرها الطويل ، هى مرحلة المدنية العلمية ، بعد أن قامت حضارات على غير العلم أساسا ومحورا ؟ وانا لنترك للتاريخ الحكم لهذه الحضارة العلمية أو الحكم عليها • لكننا نكتفى هاهنا بالقول بأن ذلك كله قد أراده الله نتيجة لفكرة أرقت صاحبها أعواما ، ولقيت من أولى الأمر هنا صدا ، وهناك سخرية • وتلك هى الفكرة التى دفعت صاحبها الى عبور المحيط

الأطلسى لأول مرة ابتغاء الوصول الى الشرق عن طريق السير غربا ، مادامت الأرض كرة ، فاذا الغطاء ينكشف عن الأمريكتين !

عرض كولمبس فكرته على ملك البرتغال ـ أول ما عرضها ـ فسخر منه قائلا : « أحسب يا كولمبس أن الناس على الجانب الآخر من الكرة الأرضية التى تتحدث عنها ، يسيرون على رءوسهم ، وان الأشجار تنمو وفروعها مدلاة الى أسفل ، وأن السماء هناك تمطر ثلجا وبردا يصعد ولا يهبط » ... وضحك الملك المعظم وضحكت معه الحاشية المكرمة !!

ولجأ الرجل الى ملك اسبانيا وملكتها ، فأحالاه على مجمع من رجال الدين العلماء ليناقشوه ، فسمع منهم عجبا : هذا يهزأ ، وذاك يهين ، حتى لقد قال منهم قائل ـ وكولمبس ماثل أمامهم يشرح قضيته : « من ذا يكون هذا الصعلوك المتسول ؟ هذا الدعى ؟ انه ليس اسبانيا ، بل هو أجنبى من جنوا ، انحدر هناك من أسرة تحترف النسيج ، وجنوا هى بلد الزندقة منذ زمن بعيد !... » بمثل هذا امتحن الرجل العظيم محنة أودت به الى يأس موقوت ، ولقد كان كولمبس بارعا حين قال لهؤلاء المحكمين باللغة التى يفهمونها : « تذكروا ياسادة اننى لست سوى أداة تنفذ مشيئة الله ، فاذا أبحرت فى المحيط المجهول، فلن تكون البوصلة وحدها هى هاديتى، بل سيهدينى كذلك ضوء الايمان » . لكن كلماته كلها وقعت من قساوسة المجمع على آذان صماء .

لكن مشيئة الله أمضى ، فقد وفق كولمبس آخر الأمر أن يمثل أمام فرديناند وايزابيللا، وما ان طلبت منه الملكة أن يروى أمامهما قصة حلمه العجيب ، حتى أجابها الرجل بجنان رصين ثابت : « انها يامولاتى بصيرة نافذة أكثر منها حلما ...» وراح الرجل يمنى صاحبى

العرش بالمجد وبالذهب ، حتى انتهى الأمر الى نجاح .

والقصة بعد ذلك قصة طويلة ، فيها سحر للخيال ، وفيها غذاء للعقل وفيها مدد للعزيمة ، وفيها القيم الرفيعة ، وفيها من التاريخ الدرس والعبرة ، وهل تريد درسا أوفى وعبرة أنفع من رجل يرحل في حياته أربع رحلات يقطع بها المحيط الأطلسى ذهابا وجيئة ، يعود بعد كل واحدة منها بالكشف الجديد ، فيكون مصيره ذات مرة على يدى حاكم جاهل مغرور أن يزج به فى السجن ، وأن توضع فى يديه الأغلال كأنما هـــذا العظيم سفاح للدماء ؟! فمن ذا — من أصحاب المواهب — لا يتعلم أن يخدم موهبته ويخلص لها مهما لقى فى سبيل ذلك من عنت معاصريه ؟

والحق أن القارىء العربى مدين للأستاذ رجائى نجيب مقار بهذه الترجمة التى صاغت لنا القصة الجليلة فى بيان عربى جميل .

زكى نجيب محمود



الفصل الأول

المـــأوى



« الشجاعة يابنى ، هل أنت فى غاية الارهاق ؟ »

فأجاب الطفل : « نعم يا أبى ، هل مازال هناك طريق طويل علينا أن نقطعه ؟ »

وأشار الرجل الى أعلى الجبل • وكان هنـــاك بناء ضخم ربض ككلب الحراسة على ميناء بالوس ، اصطبغت حوائطه المطلية بحمرة شمس المغيب • واخترقت أجراس صلاة الغروب الهواء الساكن •

وقال الرجل : « يبدو أننا وصلنا » •

« انظر ! هاهو ذا دير سيدتنا لارابيدا • ان هـــذا هــو نهاية رحلتنا لهذه الليلة » •

وأطبقت أصابع الطفل الصـــغير على أصابع الرجل • وقال ـ والأمل يساوره : « وهل سنجد راحة هناك ؟ وطعاما ما ؟ » •

وقال له الرجل مطمئنا :«بكل تأكيد فان الفرنسيسكان الطيبين لا يغلقون بابهم دون جائع » •

ولكن صعود الجبل كان وعرا لشدة انحداره • وقبل أن يبلغ المسافران الدير اضطر الرجل الى أن يحمل ابنه ، فقد كانا قطعا أميالا كثيرة منذ الفجر • وكان تراب اسبانيا كذرور يغطى أحذيتهما وملابسهما ، وحرارة ذلك اليـــوم لا تطاق ، حتى بالنسبة لذلك الصيف من عام ١٤٩١ ، فوترت الحرارة عضلاتهما واسترقت القوة من أطرافهما •

ووضع الرجل الطفل على عتبة الباب وهو يتنهد فى راحة • ورفع مطرقة الباب الفضية وتركها تسقط على واجهة الباب العتيقة التى ملأها السوس بالثقوب • فدوى صوت الطرقات خلال السكون •

وبينما كان يقف منتظرا ، ألقى الرجل بنظره الى الوراء أسفل الجبل حيث جاء هو وابنه • فاستطاع أن يتبين ، عبر مزارع العنب وفيما وراء أسطح منازل مدينة بالوس ، أشرعة سفن كثيرة على مياه نهر ريو تنتو الداكنة •

وكانت سفينة اسبانية رائعة تقف فى عرض البحر فيما وراء حاجز سالتيز ، صبغت شمس الأندلس أشرعتها بحمرة قانية ، ورفرفت أعلامها وبيارقها فى الهواء • وأسرعت دقات قلب الرجل • ماذا يمكن أن يمتنع عن اعطائه فى مقابل مثل هذه السفينة ؟ لقد كانت متجهة الى الغرب ولكن سرعان ما يغير ربانها وجهتها • فالناس لم يبحروا فى بحر الظلمات الذى يقع فى الطرف الغربى من الكرة الأرضية • لقد أبحروا جنوبا الى غينيا ، أو شرقا الى القرن الذهبى ، وأحيانا الى الشمال حتى أيسلندا ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك أبدا الى الغرب المجهول • وتمتم الرجل قائلا : « يالهم من بله ! لماذا لا يستمعون الى ؟ »

وجاءه صوت نعال تصطفق على أرض مغطاة بالقرميد • ثم تحرك باب الدير بثقل • وبدا راهب ضئيل الحجم قوى البنية مرتديا رداء متواضعا وقلنسوة مما يخص الرهبان ، وتفرس بنظره القصير فى الغريبين على عتبة الباب • ومع أن ملابسهما كانت رثة الا أنه لم يبد عليهما أنهما متسولان • وتساءل الراهب قائلا : « ماذا تريدان ؟ » •

فأجاب الرجل فى حالة من الاجهاد : « اننا ننشد احسانك أيها الأخ ، اننا نبحث عن مأوى لهذه الليلة ، ورغيف لنأكل ، وربما كوب من اللبن • فبرقت عينا الراهب الصغيرتان • فان حضور غريب ، وبخاصة اذا كان يتحدث بلهجة أجنبية ، يعتبر حدثا • وقال الراهب بشغف : « هناك مايكفى اثنين وزيادة • فالخبز « طازج » والماعز قد حلبت منذ وقت قصير » • وقال المسافر المرهق : « انك لشفوق على الغريب » • فابتسم الراهب قائلا : « ليس هذا بشىء ، هل جئت من بعيد ؟ » •

.. « نعم ، من البرتغال » •

فصاح الأخ الطيب بدهشة قائلا : « ياه ، ياه • سفر لعدة أيام• لابد أنك مجهد • أنت اذن برتغالى ؟ » فأجاب الغريب : « أنا ايطالى من جنوا » •

فصاح الأخ قائلا : « حقا ! وماذا يدعونك ؟ » •

فوقف الرجل على عتبة الباب منتصبا بصورة لا شعورية ولاحظ الراهب أنه نحيل قوى البنية رغم أنه متوسط العمر ، ذو حاجب غزير ، وذقن مربع وأنف أشم كمقدم السفينة • وأجاب الغريب قائلا بجد : « الناس يدعوننى كريستوفر كولمبس • وهذا الصبى هو ابنى دييجو » •

وأطل الراهب عليهما وأسر اليهما قائلا : « أنا معروف باسم الأخ سباستيان • ادخلا ياصديقى ، وكونا فى سلام • ان رئيس ديرنا مشغول الآن ولكنه سيستقبلكما بعد وقت قصير » •

لقد عرف الأخ الفرنسيسكانى ــ وهو الراهب غير المرسوم ــ بغرامه بالحديث وباكرام الضيف • ولم يكن الأخ سباستيان ليستثنى من هذا الأمر • فقد قاد المسافرين عبر ركن مظلم ، ثم عبر فناء قامت فيه أشجار الرمان والتين ساكنة فى الغسق ، وهو يوجه اليهما سيلا من الأسئلة والتعليقات • ثم قال : انه لجميل أن نستمع الى الأخبار • كيف تجرى الأمور فى البرتغال ؟

ودفع الأخ سباستيان مصراعى باب وهـــو يتنفس بصـــعوبة يدعوهما الى الدخول قائلا : « استريحا هنا فى المكتبة حتى أرى ما تم بشأن طعام العشاء ، وحينئذ سوف أخبر رئيس الدير بوجودكما • وسوف تجدان الأب بيريز من أكثر الرجال حكمة وعلما • ان عقله ملىء بالمعرفة كما تمتلىء البندقة باللباب • ولتسمحا لى أن أخبركما أنه

متصل دائما بالشخصيات غير العادية ، فقد كان فى يوم من الأيام أبا الاعتراف للملكة النبيلة ايزابللا نفسها » •

وعندئذ هرول الراهب الصغير مبتعدا مخلفا وراءه الصمت • وجلس الولد الصغير المجهد على كرسى وهو شكور ، ولكن أباه جال بنظره فى المكتبة باهتمام متسرع • فوجد أن صفوفا من الكتب ، المغلفة بالأغلفة الجلدية الثمينة ، تغطى جـــدران الحجرة المتسعة • ومنضدة تناثرت عليها الخرائط واللفافات ، وعلى حامل الرسم كان هناك نموذج ناقص لسفينة شراعية ، ولاحظت عين كولمبس المدربة التفصيل الدقيق الذى كانت ترسم به السفينة الصغيرة • فلا بد أن رئيس الدير أو أحد الاخوة الرهبان ، مهتم بدرجة غير عادية بالسفن والبحر •

وجذب انتباه الرجل اسطرلاب ــ وهو آلة تستخدم فى علم الفلك ــ فاتجه اليه وكأن قوة فى المعدن ذاته تجذبه اليه • ووصل اليه ببطء ولمسه • وخيل اليه بهذه اللمسة أن المكتبة بالكتب التى تغطى حوائطها قد ابتعدت عنه مختفية تماما •

ومرة أخرى أخذت روحه تثب فى الظلام فى اتجاه نجم لا يراه أحد سواه • كم ضحكوا عليـــه فى البرتغال !! فسموه بالحالم ، وبالرأس العقيم ، والدعى • وكان الملك العظيم جون أعلى الجميع ضحكا منه • عندما قال « انى لأظن ، ياكولمبس ياأكثر الناس حكمة ، أن الناس على الجانب الآخر من هذه الكرة التى تتحدث عنها يسيرون على رءوسهم ، وأن الأشجار تنمو وفروعها مدلاة الى أسفل • وان السماء هناك تمطر وتسقط ثلجا وبردا الى أعلى • أليس كذلك ؟! » وضج البلاط بالضحك •

وتقلصت قبضات الرجل • وأغمض عينيه برهة لتذكره هذه الوجوه الكريهة ، وأصم أذنيه عن صدى ضحكاتهم الساخرة •

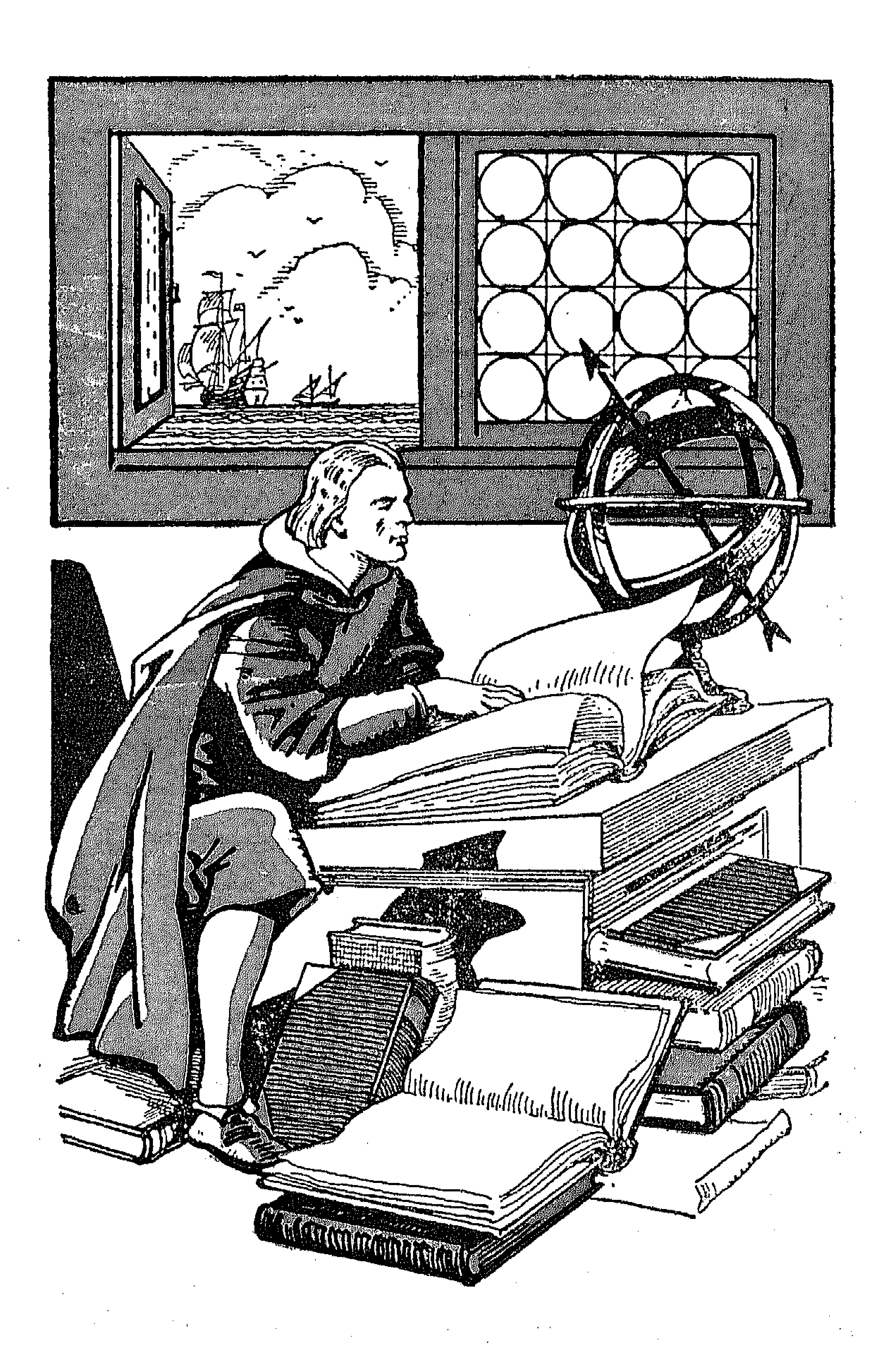
وفجأة شعر بمن يجذب كمه • وقال دييجو متوسلا : « ياأبى، لقد أحضر الأخ سباستيان عشاءنا ، هيا نأكل ، انى أكاد أموت جوعا».

ووضع الرجل يده على رأس الطفل • وامتلأت عيناه أسى عندما فكر قائلا لنفسه : « أى بنى اليتيم ! ماذا ستصبح فى هذا العالم الملىء بالبله وعمى البصيرة ، حيث لا يرى حتى أكثرهم تعليما أبعد من أنوفهم ؟ » ثم قال بصوت مرتفع : « نعم ، يابنى ، هيا نأكل » •

كان على الصينية التى وضعها الأخ سباستيان على المنضدة رغيف ساخن جاء توا من الفرن ، وقدر من لبن الماعز ، وطبق من اللحوم الباردة ، ووعاء ملىء بالبرتقال •

وقال الراهب الصغير مبتسما : « لابد أن هذا سيزودكما بالقوة حتى الغداء » •

وأضاء شمعة فى كل طرف من أطراف المائدة ، والتمعت عيناه عندما راقب الرجل والولد يتقدمان لتناول الطعام المبسوط أمامهما • وأكلا فى سكون تام ، وكأنهما كادا يموتان جوعا ، مما دفع الأخ الطيب أن يكبت رغبته فى الكلام • فسوف يعرف الأخ سباستيان فيما بعد كل شىء عن هـــذا الغريب ذى العينين المتقدتين والخطوط المحفورة حول فمه ، والتى تنبىء بما قاساه من مرارة النفس • ومن المؤكد أنه لم يكن مسافرا عاديا • فما هى تلك المغامرات الفاشلة التى قد تأتى بهذا الرجل المدعو كريستوفر كولمبس ، بطفل بين يديه ، الى بوابة دير سيدتنا لارابيدا ؟



نكس دييجو الصغير رأسه مع آخر لقمة من الطعام ولكنه قاوم برجولة ثقل جفنيه وتمايل بجسمه النحيل الى الأمام • وأسند خده الى المنضدة • فهمس الأخ سباستيان : « انه ينام » •

ثم قال : « انه أصغر من أن يقوم بمثل هذه الرحلة ياسيد كولمبس ، سأحمله الى سريره • وسوف يجيئك الأب بيريز بعد قليل • لقد أخبر أنك فى انتظاره » •

وانحنى الراهب وحمل الطفل النائم برفق •

وبعد ذهاب الأخ الطيب بدت الحجرة وكأنها مليئة بالظلال • وانسابت خلال النافذة المفتوحة أصوات الفرنسيسكان ترتل صلاة ماقبل النوم • آخر صلاة فى اليوم • وأخذت الشموع تحترق باطراد فى الهواء الساكن •

جلس كولمبس ساكنا تماما مستغرقا فى التفكير • هل جانبته الحكمة عندما هرب الى اسبانيا ؟ حقا ، لم يكن هناك اختيار فى الأمر ، لأنه من هنا فحسب يستطيع أن يبحر الى فرنسا • وأنكر البرتغاليون عليه حق الرحيل عن بلدهم • وسرقوا خرائطه وحساباته وأرسلوا سفنهم سرا • ولكن الله عاقبهم ، لأن الرياح ردتها الى شواطئهم •

ولكن كولمبس أجبر على التسلل كلص عبر الحدود ، مصطحبا الطفل معه • فهل سيقدر له نجاح أكبر فى اقناع ملك فرنسا بأن أقصر طريق الى ثروة الشرق الأقصى الخيالية هى فى الابحار الى الغرب ؟

وفجأة ضرب كولمبس المنضدة بكفه • يجب ، ولابد أن يقنع الملك الفرنسى ! فلم يعد هناك متسع من الوقت • فالسنون تمضى كما تختفى الطيور فى الضباب • فهل سيقدر له أن يعيش حتى يحقق

هـــذا الحلم الذى تراءى له بوضوح ؟ ولماذا لم يوفق فى أن يجعل الآخرين كذلك يرون هـــذا الحلم ؟ وبدا له أن النـــاس يفكرون فى المحيطات على أنها حدود يكمن وراءها الدمار ٠ ولكن ليست هناك حدود لروح الانسان ٠

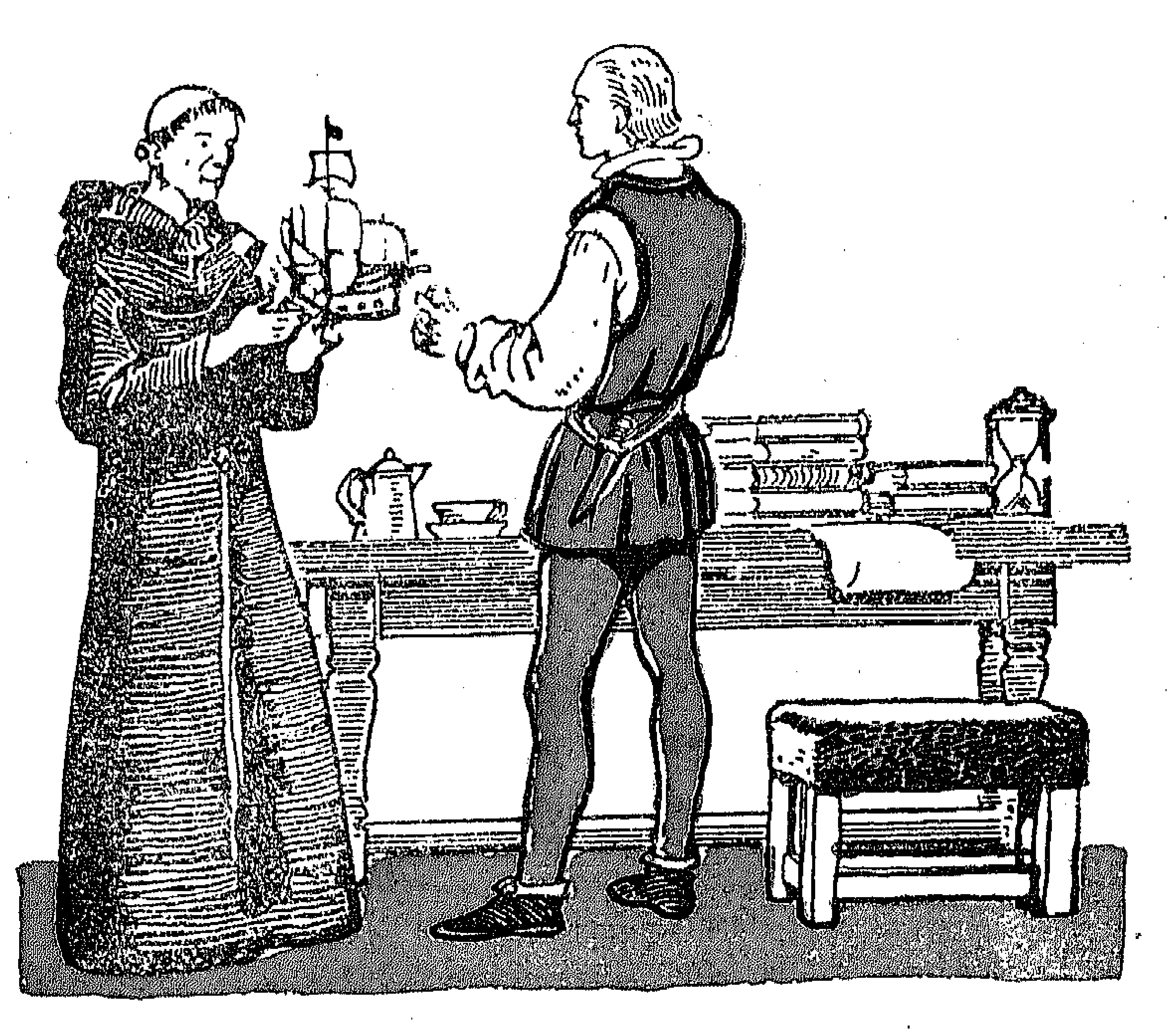
وغاص رأس الرجل بين كفيه ٠ وهدأ جسده ٠ وعندما نام ، ارتد عقله الى مكان آخر ، والى زمن عاد فيه الى الشـــباب ، كانت السماء أكثر زرقة من أى سماء أخرى تذكرها منذ طفولته ٠ صوت من هذا الذى كان يدعوه ؟ آه ، لقد تذكر الآن ٠ لقد كان برتلميو أخاه الأكبر ، يصيح قائلا : « هيا بنا الى رصيف الميناء ٠٠ هناك سفينة من جنوا عليها بحارة يحملون أقراطا ذهبية فى آذانهم ٠ تعال ، هيا بنا نذهب ! »

ورد كريستوفر بشغف قائلا : « نعم » ٠ فأى مرح أكثر من رؤية سفينة من جنوا يحمل بحارتها أقراطا من الذهب فى آذانهم ؟

« نعم يابرتلميو ، هيا بنا نذهب » ٠

الفصل الثانى

رئيس دير لارابيد



كيف كان يتأتى للصبيين أن يخمنا أن على ظهر تلك السفينة ابن عمهما ، تونيو ، الذى كان قد رحل عن جنوا هـذه الشهور الطويلة ؟ فقـد قابلاه على قطعة ضيقة من الشاطىء • وكان ضخم الجسـم ، أبله لا حظ له من الفطنة • وكان اذ ذاك يرتدى ملابس فاخرة كمن سافر الى الأراضى الغامضة • ولكن كريستوفر تراجع الى الوراء •• انه لم يحب تونيو أبدا •

وتساءل برتلميو بشغف : « قل لنا ، ياابن العم ، أين كنت طوال هـــذه الشهور ؟ هل رأيت الخان الأكبر (١) ، أو امبراطور سيبانجو (٢) ؟ » فأجابه تونيو بكبرياء : « لقد ذهبت الى شواطىء بلاد المغرب الرملية أيها الصغار القابعون فى منازلكم . حيث رأيت أعمدة هرقل (٣) ، وتلك الجزائر الحديثة التى اكتشفها البرتغاليون » وتساءل كريستوفر قائلا : « هل تعنى الجزر السعيدة ؟ » وتمايل تونيو نحوه وعيناه تتسعان دهشـــة « اذن فقد سمعت عنها ! انى أذكرك دائما وأنت تحشر وجهك فى كتاب . فسوف تصبح راهبا فى يوم من الأيام اذا لم تأخذ حذرك .

هل أخبرتك الكتب أن البحر ينتهى عند انطاكية ، فيما وراء بلاد اليونان » .

فقال كريستوفر هازئا : « انى لا أصـــدق هـــذا . ان هى الا أقاصيص صيادى أسماك » .

فرد الآخر مغتاظا : « ياسلام ! من المحتمل أنك تعرف أكثر من البحارة ؟ »

فأجاب الغلام بعناد : « انى أعلم أن الأب جيوفانى قرأ علينا كتابا فى مدرســـة النســـاجين كتبه رجل من البندقية اســـمه ماركو بولو (٤) ولقد قال .. »

---

(١) الخان الأكبر قوبلاى خان أخو هولاكو القائد المغولى المشهور .

(٢) سيبانجو ـ جزيرة فى المحيط الأطلسى .

(٣) أعمدة هرقل ـ صخرتان كائنتان على جانبى مضيق جبل طارق .

(٤) ماركوبولو ـ أعظم رحالة القرون الوسطى . ولد فى البندقية سنة ١٢٥٤ وكانت أول رحلة له مع أبيه وعمه فى نوفمبر سنة ١٢٧١ الى بلاط قوبلاى خان وبلغوا الصين سنة ١٢٧٥ . وقد أعجب قوبلاى خان بذكاء ماركو بولو الذى تعلم عادات ولغة المغول بسرعة . وبقى هناك عدة سنوات . ثم رحلوا عائدين الى بلادهم سنة ١٢٩٢ حيث وصلوا الى البندقية سنة ١٢٩٥ ، ومات ماركو بولو سنة ١٣٢٤ بعد أن وضع كتابه الشهير عن رحلاته .

(المترجم)

ولكن تونيو قاطعه بوقاحة : «لقد سمعت عنه أنه كذاب كبير» •

فاحتد كريستوفر قائلا : « الحق أنه ليس كذلك • فان كل شيء في هذا الكتاب هو تمام كما رآه ماركو بولو • ان الأب جيوفانى يقول ذلك • لقد كان نائبا للخان الأكبر لسنين كثيرة • وركب الفيلة البيضاء التى كانت أنيابها مطلية بالذهب ، وتحمل قلائد من الأجراس الفضية فى أعقابها • وسافر فيما وراء بلاد الخان وكاثاى (١) حتى جزيرة سيبانجو • وقال ان سقوف المنازل مصنوعة من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة • وسأذهب الى هناك بنفسى فى يوم من الأيام • »

فضحك تونيو ضحكة هائلة وضرب بكفه فخذه وقال غاضبا فى صوت مرتفع : « ولكن ديكنا الصغير يثير ضوضاء عالية ، وماذا تنوى أيضا أن تفعل أيها الحكيم ؟ »

وزم الغلام شفتيه فى حزم ، ولمع فى عينيه غرض مفاجيء وقال فى كبرياء : « سيكون لى فى يوم من الأيام سفينتى الخاصة ، وسأبحر عبر أعمدة هرقل بحذاء ساحل بلاد المغاربة متجها دائما الى الغرب • »

فأجاب تونيو وهو يغمز بعينيه : « الى الغرب ؟! هل أنت مختل العقل أيها الديك الصغير ؟ ليس هناك البحار الذى يجرؤ على دخول هذه المياه ، حيث ترتفع الأمواج كالجبال ويمتليء البحر بوحوش هائلة تستطيع أن تبتلع سفينة كاملة بأشرعتها » •

---

(١) كاثاى ـ (الاسم القديم للصين) •

(المترجم)

وجاء دور كريستوفر ليكون متهكما • فسأله : « كيف عرفت هذا ؟ لو أن أحدا قابل مثل هـــذه الوحوش فكيف أمكنه العودة ليخبرنا عنها ؟ »

ولم يكن ذكاء تونيو البطىء يضارع ذكاء ابن عمه الصغير • واكتسى وجهه بنظرة مكفهرة مكتبئة تذكرها الغلام جيدا •

وقال برتلميو فى قلق : « انك ترى أن كريســـتوفر يعتقد أن الأرض كرة لا بداية لها أو نهاية » وأخبر كريستوفر قائلا : « طبعا ، انها كرة • فعندما تتطلع الى البحر ألم تلاحظ أن ساريات السفينة هى أول شىء تراه قبل أن ترى السفينة ذاتها ، وعندما تسافر بطريق البر ، ألم تلحظ أن قمم الجبال هى أول ما تراه منها ؟ كيف يمكن أن يحدث هذا لو أن الأرض كانت منبسطة ؟ »

وتململ تونيو فى ضيق •

وصاح كريستوفر : « انظر ! » ثم أخرج من جيبه حجرا قاتم اللون ، كان قد التقطه على الشاطىء منذ أسابيع ، يكاد يكون مستديرا استدارة تامة •

وكان الغـــلام قد حفر على ســطحه الأملس بقطعة من الحجر الصوان سلسلة من الخطوط المنحنية • وامتلأ صوته بالجد وقال : « دعنى أرك لقد ساعدنى الأب جيوفانى بهذه • ان هـــذه الخطوط الطويلة هى البحر المتوسط • وها هى ذى جنوا على اليمين • وفى اتجاه الشرق ، عبر آسيا ، تؤدى الطريق الى كاثاى وسيبانجو • وهذه البلاد هى النهاية الشرقية للعالم المأهول • وليس وراءها شىء سوى الماء • وهاهنا الى الغرب ترى ساحل أفريقيـــا ، والبرتغال واسبانيا » •

أدار الغلام الحجر المستـــتدير أمام أنظار مستمعيه المندهشة • وكان برتلميو صامتا لاعجابه بأخيه البارع • ولكن وجه تونيو بدا مكفهرا لعدم اقتناعه •

واستمر كريستوفر يقول : « فى قمة الكرة الأرضية الجو بارد كالثلج دائما ، والبحر المتوسط كلبن الماعز والهواء ملبد بالضباب • ويرتدى الناس هناك جلود الحيوانات • سوف لا أذهب هناك أبدا • ولكن هنا الى الغرب لا تنتهى الأرض بأفريقيا واسبانيا • لقد اكتشف البرتغاليون بالفعل أرخبيلا جديدا كاملا يقع أمام رأس فردى » • وشدد كريستوفر قبضته على الحجر وازداد صوته الفتى عمقا فجأة • واستمر قائلا : « هكذا سأبحر الى جزر الهند فى سفينتى — سأبحر من جنوا مباشرة الى الغرب عبر أعمدة هرقل • ثم أسير أبعد ثم أبعد فى عرض المحيـــط ، وأخيرا سأبلغ بلاد الشرق حيث مملكة الخان الأعظم • سوف لا يحتاج الناس للجمال مرة أخرى • بل للسفن فقط، السفن ، السفن ! » وبرقت عيناه كما تبرق النجوم •

وصدرت عن تونيو صيحة غضب • وصاح فى غلظة : « كذاب ! صن لسانك ياغلام ! » وضرب كريستوفر بكفه ضربة مرعبـــة • فترنح الغلام وسقط ممددا على الرمال • وتدحرج الحجر المستدير الى البحر •

رفع كريستوفر رأسه • أين كان ؟ ماذا حدث ؟ أين برتلميو وتونيو ؟ وكان كل ماحوله ظلاما فلم يعد يرى • وفجأة ظهر ضوء أمام عينيه عندما خفقت شمعة • أطل من فوقها وجه متقدم فى السن تحيط به قلنسوة راهب ، نظر بثبات فى وجهه •

وقال صوت عميق ملىء : « لقد نمت ياسيد كولمبس • لقـــد عثرت عليك فى الظلام واحترقت الشموع • وهمت فى الأحلام » •

وتمتم كولمبس وهو يقف : « من أنت ؟ » ٠

وأجاب الرجل بهدوء : « أنا الأب بيريز رئيس دير سيدتنا لارابيدا ٠ انى أرحب بك ياسيد » ٠

فقال كولمبس متمالكا نفسه : « ان كرمك يحيرنى يا أبى » ٠

فقال الأب : « لقد سبق أن أخبرنى الأخ سباستيان عن اسمك ، وأنك قد جئت من البرتغال ٠ ولكنى لا أعرف طريقة حياتك » ٠ وظل رئيس الدير واقفا ، وكأنه لم يقرر بعد هل سيشجع هذا الغريب ؟ أم سيضع نهاية سريعة لزيارته ٠

وأجاب كولمبس : « انى بحار ، يا أبى ، وصانع خرائط » ٠

وجلس الأب بيريز فورا على الجانب الآخر من المنضدة ٠ لقد استأثر باهتمامه فورا ، لأن رئيس دير لارابيدا العالم ظل فترة طويلة يدرس علم الفلك والجغرافيا ٠ ثم قال : « اذن فأنت صانع خرائط ٠ أنا نفسى فكرت طويلا فى أسرار السموات والأرض ٠ » وكان يبتسم وهو يتكلم ، ووضع يده فى لطف على نموذج السفينة الشراعية التى سبق أن لاحظها كولمبس ٠ ثم اعترف قائلا : « ولكنى ألعب قليلا من حين لآخر ٠ ونموذج السفينة هذا هو أحد ألعابى ٠ خبرنى هل سافرت بعيدا كبحار ؟» وبدت لمحة من الاهتمام فى صوته الجاد وبريق ضوء الشباب فى عينيه القاتمتين ٠ وكان هذا الرجل المسن قد اتخذ لنفسه عادة سان فرانسيس الطيبة؛ وهى أن يتكلم عن السفن والبحر كما يتحدث عنها من يشتاق اليها ٠

واطمأن كولمبس لمضيفه ٠ ولما كان قد عومل باستهزاء أمدا طويلا فقد انبسطت أساريره لاهتمام رئيس الدير ٠ فقال : « لقد اهتممت بالبحر مدى ثلاثين سنة ، رجلا وغلاما ٠ وعبرت البحر

المتوسط مرات لا حصر لها وبلغت كل سواحله • وذهبت الى الجزر الانجليزية وجزر الآزور (١) البرتغالية ، والى أيسلندا ، والى أرخبيل جزر كنارى الاسبانية (٢) » •

والتمع بريق الشك فى عينى رئيس الدير برهة وقال : « هذا يعنى أنك بلغت حدود كل العالم ، ياسيد. » •

فأجاب كولمبس : « حدود العالم المعروف ، أى نعم ، وليس حدود العالم كله ، أعتقد أنه مازالت هنـــاك بلاد ، وربما قارات ، تنتظر الاستكشاف • »

« حقا كيف تقرر هذا بالتأكيد مادمت لم ترها أبدا ؟ »

وجردت ابتسامة مفاجئة جواب كولمبس من حدته وقال : «كيف تستطيع يا أبى أن تقرر أن هناك جنة مادمت لم ترها أبدا ؟ » وأجابه رئيس الدير فى هدوء : « لأنى أومن بها » •

« بالضبط • وانى أشاركك فى هذا الايمان • ولكننى أضيف الى ذلك ــ الرياضيات » •

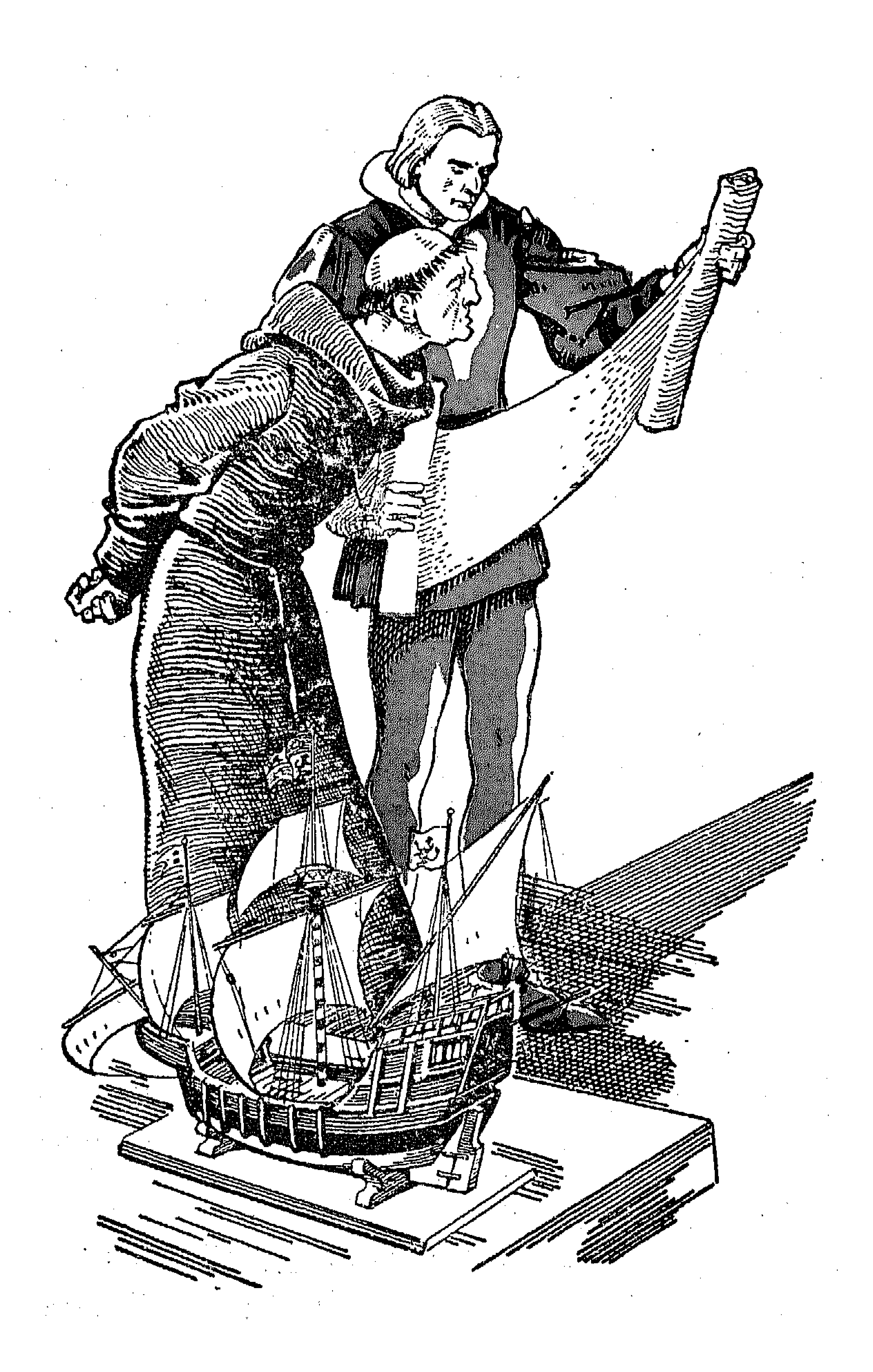
وهز الأب بيريز رأسه مفكرا • وقال : « ان هـــذا ممكن ، وفضلا عن ذلك فان جزر كنارى اكتشفت فى عصر أبى فقط » •

---

(١) جزر الآزور ــ مجموعة جزر قرب الساحل الأفريقى الغربى فى المحيــط الأطلسى بالقرب من مدخل البحر المتوسط • وهى مجموعة من تسع جزر من أشهرها جزيرة فلوريز التى سيأتى ذكرها •

(٢) جزر كنارى ــ مجموعة جزر فى المحيط الأطلسى تقع بالقرب من الساحل لشمالى الغربى الأفريقى • مكونة من سبع جزر كبيرة وعدد كبير من الجزر الصغيرة ، أشهرها جزيرة تنارف •

(المترجم)



وأخرج كولمبس من صديريته الرثة رقا مطويا بعناية ملفوفا فى حرير مشمع • ونشره على المنضدة •

وأخـــذ يشرح باهتمام قائلا : « انظر يا أبت ، انها الخريطة الوحيدة التى لم يأخذها منى البرتغاليون • انها خريطة رسمتها لتلك المناطق المجهولة ، ومع أنى لم أرها ، الا أنى أعرف من الحقائق التى توافرت لنا ما يمكن أن تكون عليه هذه البلاد النائية » •

وقال الأب بيريز فى نبرة يشوبها الحذر : « عن أية حقائق تتحدث ؟ » • وشعر فى شىء من القلق أن هذا الغريب اما أنه مجنون واما أنه عبقرى •

وتحمس كولمبس لموضوعه وقال : « ان العواصف الهوجاء التى تهب من الغرب قد اكتسحت الى الشاطىء فى بورتو سانتو جذوع أشجار خشبها غير معروف ، فهو محفور دون أن يمســـه حديد • فما هى اليد التى حفرتها ؟ والغاب سميك أيضـــا ، حتى ان جزءا من غابة واحدة ليتسع لجالونات من الخمر • والأشجار التى لا ينمو لها مثيل فى جزر الآزور • من أين جاءت ؟ وقرر حاكم جزيرة فلوريز نفسه وجود جثتى رجلين لفظهما المحيط ـ رجلين ذوى وجوه صفراء وشعر أسود مستقيم مثل أهل آسيا • ماذا تظن فى كل هذا ؟ »

وظل رئيس الدير صامتا لحظة وقد خامره شعور بالدهشـــة والرهبة • وقال فى تردد : « ولكن هل يمكن أن يوجد من يستطيع مواجهة تلك الأخطار المروعة فى محيـــط مجهول ؟ ان الفكرة ذاتها مفزعة » •

وأشرقت ابتسامة لطيفة على وجــه كولمبس المكتئب • وأجاب قائلا : « ان الذى يريد أن يطمئن الى أنه ســـيموت فى سريره لن يذهب الى البحر أبدا » •

وفجأة تناول برتقالة من الوعاء الذى على المنضـــدة • وقال متوسلا : « افرض يا أبى أن هذا هو العالم • وسنسمى هذه النقطة لشبونة وهنا ــ » وحدد نقطة أخرى على البرتقالة « أقصى منطقة فى كاثاى ، وهى مسافة أربعة عشر ألف ميل • والآن ، بدلا من السفر برا الى الشرق ، افرض أننا أبحرنا الى الغرب • ماذا سيحدث ؟ اننا سنصل الى كاثاى بالسفر لمسافة أربعة آلاف ميل فحسب • فكر فى هذا : أربعة آلاف ميل بحرا بدلا من أربعة عشر ألف ميل برا » •

وارتسمت ضـــحكة هادئة على شفتى رئيس الدير • وقال : « يبدو أن لديك اجابة عن كل الاعتراضات • ولكن خبرنى لأى غاية نبيلة ترغب فى اثبات نظريتك ؟ » وجاءه جواب كولمبس فى كبرياء : « لأجد أقصر الطرق الى قارة آســـيا ، ولكى أحمل الى أهلها معرفة العقيـــدة الصحيحة » • ولم يكن أحـــد ليخطىء رنة الاخلاص فى كلماته •

« انى أعتقد ، أيها الأب الطيب ، أن الله قد اختارنى لهـــذه المهمة ، بأن وهبنى ، منذ الطفولة ، حبا للأماكن البعيدة • لقد علمنى أسرار النجوم والبحر • ووهبنى حـــكمة فى الرياضيات ومهارة فى صناعة الخرائط • ويجب أن أتبع أمره حتى أكف عن التنفس » • وأنهى الرجل حديثه وأتى بحركة تدل على اليأس •

« وماذا أطلب لهذه المغامرة العظيمة ؟ ثلاث سفن فقط • ثلاث سفن صغيرة • هل هذا الذى أطلبه بالشىء الكثير ؟ »

ونكس رئيس الدير ذقنه مفكرا وقد ازدادت الشموع احتراقا • وأخذ الاعتقاد فى نفسه يزداد فى أن هذا الرجل المدعو كريستوفر كولمبس ، هذا الغريب الذى صادف أن طرق أبواب دير لارابيدا ، قد نفذ الى قلب الحقيقة •

ونهض كولمبس ودفع كرسيه الى الخلف وقد أحس الآن بتعب شديد • لقد عاوده ذلك الاحساس بالخيبة الذى أرهقه بشدة أمدا طويلا • وقال فى نبرة خافتة ــ بعد أن طوى الخريطة ووضعها فى صديريته : « لقد استغللت طيبتك بطريقة غير لائقة ، واذا ما وجهتنى الى الحجرة التى ينام فيها طفلى فالوقت متأخر ويجب أن نرحل فى الفجر » •

وأفاق رئيس الدير وقال : « ترحل ؟ الى أين ؟ »

« انى أبحث عن سفينة الى فرنسا • لكى أعرض هذه الامبراطورية التى أتحدث عنها ، هذا المجد العظيم ، على الملك الفرنسى (١) » •

« ولكن ــ »

فصاح الرجل بحرارة : « لقد أضعت سنين كثيرة بالفعل ، أربع عشرة منها منحتها للبرتغال • فى مقابل أى شىء ؟ لقد سرقوا حساباتى بعد أن وعدونى بدراستها واتخاذ قرار بشأنها • ولكنهم بعثوا بالسفن التى رفضوا أن يمنحونى اياها • وتزحف أساطيلهم الآن بحذاء سواحل غينيا ملتقطة قطعة ذهب من هنا ورقيقا زنجيا من هناك • ولكننى سأضمن للتاج الفرنسى طريقا مباشرا عبر المحيط الغربى الى ثروة آسيا الهائلة » •

---

(١) تشارلز السابع •

وقال رئيس الدير معترضـــا : « ولكن لماذا للملك الفرنسى بالذات ؟ ولماذا لا تكون للملك فرديناند والملكة ايزابللا (١) مادمت تقف على أرض أسبانيا الآن ؟ »

فقال كولمبس مغموما : « ليس هناك الحاكم الذى أود أن أخدمه بسرور مثل ايزابللا ملكة كاستيل ، ولكن كيف يتسنى لى أن أطرق سمع جلالتها ؟ »

وأجاب رئيس الدير بتؤدة : « ان هذا ليس بالأمر المستحيل ، مع أنه يندر أن يكون الوقت ملائما الآن لنلتمس من أصحاب الجلالة سفنا واعتمادات مالية • لقد استنزفت الحرب خزانة الدولة • ولكن مازالت لدى فكرة » •

« وما هى ، أيها الأب الطيب ؟ »

لقد خطر لى أن ميناء بالوس هذا لديه أمر من المجلس الملكى بتجهيز سفينتين لأداء أية خـــدمة قد يطلبها التاج • واذا توافرت سفينتان فان تكاليف سفينة ثالثة قد لا تبدو باهظة للملكة » •

جاش مثل هـــذا الأمل فى صدر كولمبس حتى انه خشى أن يتكلم ، لأنه تذكر أن رئيس الدير كان فى يوم من الأيام أبا اعتراف للملكة ايزابللا نفسها •

---

(١) فرديناند الخامس ملك كاستيل وأراجون وصقلية ونابلى • ولد سنة ١٤٥٢ وتزوج الملكة ايزابللا سنة ١٤٦٩ وفى سنة ١٤٧٩ توفى والده واندمجت مملكتا أراجوان وكاستيل • وفى سنة ١٤٩٢ انتهى الصراع بين المغاربة وفرديناند بسقوط غرناطة وانتصاره النهائى عليهم • وفى أغسطس من نفس العام أبحر كولمبس الى الغرب وماتت ايزابللا سنة ١٥٠٤ ومات فرديناند سنة ١٥١٦ •

(المترجم)

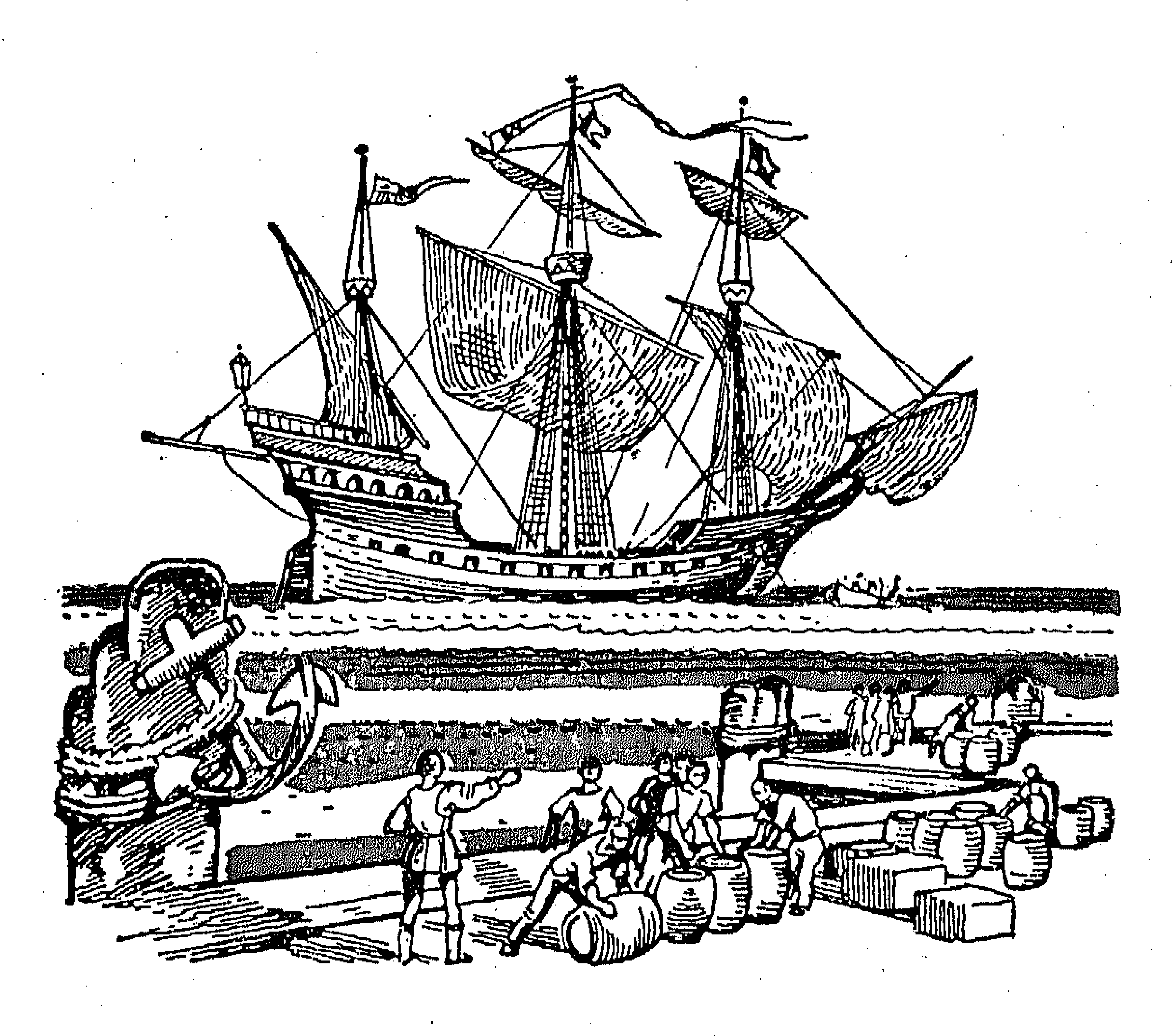
وكان الأب بيريز يقول : « سأدلك الآن على حجرتك • سنرجئ هذه الفكرة وتنام • فالنوم يلهمنا الرأى السديد » •

وعندئذ توتر جسده النحيل العجوز برهة • وحملق متفحصا فى عينى كولمبس وربما أرضـــاه ما اكتشفه لأنه قال : « انه لأمر يحتاج الى شجاعة أن تكون أول من يفعل شـــيئا يحتاج اليه العالم • فالصغار من الرجال يتراجعون ، والجبناء لا يبدأون أبدا • لقد وجدت فى شخصى صديقا • انى أومن بك ياكريستوفر كولمبس • وتذكر أن أطول الأيام ، وأكثرها مشقة ، له مساء ، وأن لأطول الرحلات نهاية • الله معك ياسيد » •

وحنى كولمبس رأســـه ، وجمدت الدموع فى عينيه ، وهمس قائلا : « فليباركك الله ويحفظك أيها الأب » •

الفصل الثالث

القضية تجد من يرعاها



كانت قوانين اسبانيا فى ذلك الصيف من عام ١٤٩١ تأمر بشدة صاحب كل سفينة بأن يخبر عن أية موانىء يرسو فيها ، وعن البضائع التى يمكنه حملها ٠

ولكن ملاحى ميناء بالوس ، كانوا جماعة مستقلة دائما ، كثيرا ماخرجوا على القانون بالاتجار فى البضائع الممنوعة ٠ وأخيرا استنفد

هذا التحدى صبر المجلس الملكى · وكان العقاب صارما · فصدرت الأوامر لأبرشية (١) بالوس بتجهيز سفينتين على حساب أهلها ، وبوضعهما تحت طلب التاج · ولمدة عام واحد كان يمكن أن تبعثا فى أية مهمة قد تصدر بها الأوامر ·

وسبب هذا الأمر كثيرا من التذمر فى الميناء · فلم يكن أحد يعرف سفن من التى سيستولى عليها ، وأى بحارة سيرغمون على الخدمة ، أو فى أية رحلة سيئة الطالع سيرسلون · ومهما يكن من أمر ، فبعد بضعة أسابيع ، لم يتم فيها اتخاذ أية تنظيمات جديدة ، انتهى الناس الى الاعتقاد بأن المجلس الملكى كان يهددهم لتحسين سلوكهم ·

وكانوا سيدهشون لو علموا أن فكرة كانت تتكون فى عقل رئيس دير لارابيدا ، وكانت ستزعزع شعورهم بأن كل شىء يسير سيرا حسنا ·

كان الأب المبجل يتململ فى قلق على سريره الخشن ، خلال الساعات التى تلت مقابلته لكريستوفر كولمبس مباشرة · وخلال أحلام يقظته تراءت له سطوح منازل سيبانجو وكأنها صيغت من الذهب الخالص · وأن الخزائن الملكية التى استنفدتها الحرب قد امتلأت حتى فاضت بكنوز كاثاى من جواهر ومعادن ثمينة وتوابل وحرير ·

وفكر الأب بيرين أيضا فى ملايين البشر فى آسيا الوثنية الذين سيدخلون العقيدة (المسيحية) · وكان من غير المعقول أن تفقد أسبانيا مثل هذه الفرصة ومثل هذه الامبراطورية · فلا غرابة أن

---

(١) ابرشية ـ بيعة ، منطقة خاضعة لنفوذ كنيسة واحدة ·

(المترجم)

يتململ على فراشه الذى هو فراش من القش ، على حين كانت الشكوك والحيرة تنهب نفسه . فمع أنه كان لسنوات كثيرة أبا اعتراف الملكة فانه لم يحدث أبدا أن أفاد من فضلها . فهل سيكون على صواب لو فعل ذلك هذه المرة ؟ وهل يجوز أنه قد أخطأ فى الحكم على صانع الخرائط هذا ، هذا الجنوى (١) الذى التمعت عيناه بمثل هذا الهدف السامى ؟

وبحلول الفجر كان رئيس الدير الساهر قد صمم على البحث عن معونة الآخرين للتثبت من اعتقاده الشخصى . ومن ذا يستطيع أن ينصحه أفضل من جارشيا فرنانديز ، طبيب المدينة ؟ فان معرفة هذا الطبيب الفاضل كانت واسعة ، وامتدت دراساته الى ماوراء حدود الطب ، وكانت درايته بعلم الفلك والجغرافيا وثيقة كدراية رئيس الدير نفسه .

وكان هناك، أيضا ، مارتن الونزو بنزون التاجر الثرى وصاحب السفن . وقد انحدر بنزون من أسرة قديمة اشتهرت بكثرة الأسفار فى البحر ، وكان هو نفسه ملاحا ذا خبرة . وفكر مليا وبادراك فى درايته العملية بالملاحة .

وقال الأب بيريز بصوت مرتفع بعض الشىء : « نعم ، هؤلاء هم الرجال الذين سيؤكد حكمهم حكمى الشخصى » .

وهكذا ، لم تكد صلوات الصباح فى الكنيسة الصغيرة تنتهى ، وينتهى رئيس الدير من تناول وجبة يسيرة ، حتى أرسل الأخ سباستيان برسالة الى المدينة . طلب فيها حضور جارشيا فرنانديز ومارتن بنزون فورا الى مكتبة دير لارابيدا . كما قرر فيها أن الأمر مستعجل .

---

(١) نسبة الى مدينة جنوا .

وقبل الظهر بقليل وجد كريستوفر كولمبس نفسه أمام مشكلة اكتساب هذين الرجلين ذوى النفوذ الى جانبه • وكان نوم ليلة كاملة قد أنعشه • وبينما كان دييجو الصغير يعمل فى الحديقة مع الأخ سباستيان كان كولمبس يتكلم عن خططه بعقل صاف وروح عالية • فالأمور تسير بسرعة الآن •

وكان من الصعب عليه أن يصدق حظه السعيد المفاجىء بعد هذه السنين الكثيرة من التثبيط • ومن المؤكد أنه كان فى استطاعته أن يقنع هذين الرجلين بالثقة فى مشروعه ، كما سبق أن أقنع رئيس الدير الحكيم •

ولكن سوف لا يكون هذا سهلا • فقد وجد فرنندين رجلا صارما ذا مظهر مهيب ، تبرز عظام هيكله من ردائه « الجبرديني (١) » الأسود الذى كان يغطيه • وكانت عيناه دقيقتين تشعان ذكاء تحت قبعته السوداء التى كانت تتوج جبهته المرتفعة وقرأ كولمبس التشجيع فى أعماقهما الهادئة الصافية • ولكنه لم يكن رجلا من السهل التأثير فيه •

ولكن مارتن بنزون صيغ فى قالب مختلف ؛ فقد كان هذا الرجل الذى سوف يقوم بدور هام فى حياة كولمبس ربعة قوى البنية أطول قليلا من المعتاد ، وكان يرتدى ما يليق بتاجر ثرى ، معطفا أحمر داكنا من القطيفة مطرزا بالفراء • وكان جوربه من الحرير ، وحذاؤه من أفخر أنواع الجلد القرطبى • والتمعت خواتم جميلة فى أصابعه • ولكن كانت فى عينيه الزرقاوين النظرة البعيدة التى يتميز بها البحار ، أما سلوكه فكان صريحا وصادقا • وكان هذان الرجلان

---

(١) الجبرديني : أى المصنوع من قماش الجبردين •

(المترجم)

قد فكرا طويلا فى نفس النظريات التى يعرضها كولمبس فى تلك الساعة ، وكان بنزون قد أبحر الى الكثير من العالم المعروف اذ ذاك ٠

وألهب انتباه أمثال هؤلاء المستمعين الملىء بالاحترام حماسة كولمبس ٠٠ انه لم يكن أبدا فى حاجة الى الكلمات المعبرة كما كان فى تلك اللحظة ، وانها لم تمتثل لأمره أبدا كما فعلت فى تلك اللحظة ٠ وبلغ حديثه من قوة التأثير حدا شعر معه أن حلمه قد أثار حماسة كلا الرجلين ، وذلك حتى قبل البحث فى حساباته وخريطته ٠ ورأى الأب بيريز ، وهو يراقبهم فى صمت ، تضاؤل ظل الشك من عينى جارشيا فرنانديز ٠ ولم يكن ليخفى تحمس مارتن بنزون الصادق ٠

وعندما أبرز كولمبس خريطته ، انحنى عليها الرجلان مستغرقين فى الاهتمام كما فعل رئيس الدير فى الليلة السابقة ٠ ومع اختلاف معرفتهما ، لاحظ فرنانديز وبنزون المهارة التى رسم بها صانع الخرائط العالم المعروف ــ اذ ذاك ــ وخياله الجرىء الذى أوحى اليه بوجود عالم جديد ٠

وقفز بنزون وهو يصيح صيحة عالية : « أقسم بدينى !! اننا سوف لا نكون جديرين بأن ندعو أنفسنا اسبانيين اذا ما سمحنا لمثل هذا الاكتشاف أن يفلت من أيدينا » ٠ وامتلأ وجهه حيوية بسبب ثورته ٠ وأخذ يذرع المكتبة وكأنها سطح مؤخر السفينة ٠

وداعب جارشيا فرنانديز ذقنه بأصابعه مستغرقا فى التفكير وقال : « ان خطتك ياسيد كولمبس سليمة ، وهى قريبة جدا الى ماأوحت به دراساتى الخاصة ٠ ولكن يجب أن أعترف أنه ليست لى قوة خيالك » ٠

امتلأ كولمبس زهوا : «ان كل ما أحتاج اليه يادكتور هو السفن٠ ثلاث سفن والرجال الذين يبحرون بها » ٠

فسأله بنزون الذى كان عمليا : « أى نوع من السفن تظن أنه يصلح لمثل هذه الرحلة ؟ » وجاءه جواب كولمبس الحاضر : « كتلك التى تستخدم الآن على هذه السواحل تماما · انها جديرة بمواجهة البحر · اذ ليس لها الغاطس العميق لدرجة لا تسمح لها بالابحار فى المياه الضحلة ، أو السير فى نهر » ·

وضرب بنزون بقبضته كف يده الأخرى ، قائلا « لدى هبة صغيرة بخصوص هذا المشروع · فقد حدث ، بفضل الله ، أنى أملك من متاع هذا العالم أكثر مما يكفى · ويقول الناس انى ثرى والأمر كذلك · ومن الممكن بالنسبة الى أن أضمن هذه الرحلة ياسيد كولمبس خبرنى عن حاجتك ، ياسيدى ··· »

ولكن كولمبس هز رأسه رافضا بشدة · وقال : « ان رحلة كالتى أقترحها تستلزم سلطة التاج من ورائها · وهذا هو السبب فى أنى قضيت هذه السنين الكثيرة أطرق أبواب الملوك · فسوف أعين نائبا عن الملك على أية بلاد أكتشفها ــ وهذا الوضع لا تضمنه الا القوى التى تأتمر بأمر ملك » ·

وقال الأب بيريز موافقا : « لقد نطق بالحكمة · ان مثل هذا الأمر أكبر من أن يكون مشروعا شخصيا » ·

فقال جارشيا فرنانديز : « لقد أخبرونى أن أهل بالوس مجبرين على اعداد سفينتين لخدمة التاج » ·

وابتسم رئيس الدير قائلا : « انه لكذلك ، ولكن لا ينبغى استشارة أهل مدينتنا الطيبين مقدما · فانهم لا يتحمسون للتخلى عما كانوا يملكونه فى يوم من الأيام » · وقال الآخر محتجا : « ولكن يجب عليهم أن يستسلموا لأمر مباشر من حكامنا · هل تظن يا أبى



أنه يمكن الحصول على هذا الأمر ؟ » فهز رئيس الدير رأسه بحذر قائلا : « ان هذه اللحظة غير ملائمة مطلقا لأن نسأل المعونة الملكية . واذا فشل الحصار الراهن فان حكامنا الطيبين قد لا يطردون المغاربة من هذه الأرض مطلقا . ولكن (١) » .

وهنـــا صمت الأب بيريز صمتا له مغزاه . وحملق مستمعوه فيه . وكاد كولمبس لا يجرؤ على التنفس : « إنى أقول بكل تواضع ، اذا كان لابد أن يوصل أى شخص هذا الأمر الى مسامع مولاتنا الملكة، فهذا الشخص هو أنا . ولما كان الأمر مفروغا منه بالنسبة لسفينتين فسأحاول أن أقنعها بأن تجد وسيلة لتجهيز ثالثة » .

وعندئذ التقط الأب بيريز جرسا فضيا ودقه بعنف .

وجاء الأخ سباستيان من جهـــة الحديقة مسرعا بالدرجة التى كانت تسمح له بها بدانته وســـنه . وهو يجرجر دييجو الصغير خلفه .

وقال الراهب لاهثـــا متقطع الأنفاس : « هل دققت الجرس ياأبى ؟ »

فصاح رئيس الدير : « أسرع ؛ أسرج البغل ، تيريزا ، فى الحال » .

ونظر الراهب اليه خلسة وقال : « هل أنت ذاهب فى رحلة ياصاحب القداسة ؟ »

« الى سلامنكا ، لكى أطلب المثول بين يدى ملكتنا » . وابتلع الأخ سباستيان ريقه بصعوبة وقال : « أرجو ألا تؤاخذنى يا صاحب القداسة لما سأقوله » .

« تكلم • فالوقت ضيق » •

فقال الأخ سباستيان متلعثما : « سلامنكا على بعد عدة فراسخ ، انها بعيدة على رجل فى مثل سنك • لا تؤاخذنى » •

فقال الأب بيريز محتدا: «ان السماء أبعد من هذا• ولكنى أتوقع أن أذهب الى هناك يوما من الأيام • جهز البغل حالا » • ثم التفت الى كولمبس وأمسك يده بحرارة وقال : « وفى تلك الأثناء ، ياصديقى، سيعتبر هذا المأوى المتواضع (١) نفسه محظوظا اذا آويت اليه حتى نعرف ما يمر الملكة » •

أمسك دييجو يد أبيه باضطراب • وقال هامسا : « ما معنى هذا ، ياأبى ؟ خبرنى » •

ونظر كريستوفر كولمبس الى ابنه الصغير • وانبسطت أساريره •

« هـذا يعنى ، ياديبجو ، أن الله قد استجاب لى • انى أكثر الرجال حظا » •

بعد رحيل رئيس الدير ، أمضى كولمبس ساعات طوالا فى تأمل مجموعة المجلدات الثمينة فى المكتبة • وكان من حين لآخر يلحق بدييجو فى الحديقة حيث كان يلعب مع حديثى السن من الرهبان • ولقد أصبح الولد محبوبا • وكان مسرورا لأنه جعل من نفسه انسانا نافعا •

---

(١) يقصد الدير • (المترجم)

وهكذا مرت الأيام • وطالت المدة من أسبوعين الى ثلاثة • وكاد الشهر ينتهى • وحينئذ ، بعد ظهر أحد الأيام ، كان دييجو هو الذى اكتشف البغل ، تيريزا ، مع الأب بيريز مغلفا فى سحابة من الغبار صاعدا الجبل من بالوس •

وعندئذ اكتسح الاضطراب هدوء الدير وكأنه ريح • وتجمع الرهبان لتحية رئيس الدير بسرعة لا تلائم نظامهم • وازدادت دقات قلب كولمبس • ورغم أنه كان قلقا ، فقد انتظر الأب بيريز ليتكلم •

ونزل رئيس الدير من فوق ظهر البغل وتمايل من التعب وصاح قائلا : « الشكر لله • ولكنى رجل طاعن فى السن وسنى تثقل كاهلى » • وسقط نظره على كولمبس وتوهج وجهه : « لدى نبأ طيب لك ياصديقى ، ان مولاتنا الملكة مازالت نبيلة الشعور كما هى دائما » •

« تعنى يا أبى •• » •

« الصبر يابنى • يجب أن أرتاح • وعندئذ سوف نتحدث » • وبعد أن استراح الأب الطيب ، أخبر مستمعيه بكل ما حدث فى أثناء مقابلته للملكة ايزابللا • وقال فى سعادة : « لقد أرسلت ٢٠ ألف مارافيدس (١) للوفاء بنفقة رحلتك الى سلامنكا ، ولكى تشترى لنفسك أردية مناسبة للاجتماع بكبراء اسبانيا » •

فقال كولمبس متلعثما وهو يكاد لا يصدق حظه الحسن : « هذا يعنى أنى سأمثل بين يدى الملكة نفسها » •

(١) حوالى ٢١٦ دولارا ، أو مايقرب من مائة جنيه مصرى •

فقال بيريز محذرا : « ليس بهذه السرعة ياصديقى • لقـــد أعطتنى رسائل الى أشخاص ذوى نفوذ ، منهم وزير الخزائن الملكية ، دون لويس دى سانتانجل ، وهيرناندو دى تلافيرا وأسقف افيلا ، والى دوق « ميدينا ــ سيللى » العظيم • وعلاوة على ذلك فقد عينت جلالتها مجلسا من أربعة عشر رجلا من ذوى العـــلم للاستماع الى قضيتك واصدار حكم فيها• وفى حالة اكتسابك لموافقتهم ، فان ايزابللا ستسمح لك بالمثول بين يديها وستتبنى مشروعك » •

خيبت هذه الكلمات أحلام كولمبس الوثابة • فكثيرا ماعوقه غباء أولئك الرجال الذين يسمون برجال العلم • وقال متجهما : « لقد أملت فى أن أحظى بالمثول بين يدى الملكة نفسها لا بين أيدى أتباعها المخلصين » •

فأجابه رئيس الدير قائلا : « لقد كنت آمل ذلك مثلك ، ولكن يجب أن نكتفى بما بين أيدينا • انه يلزم بغل قِوى للرحلة • وفى ســـلامنكا ســـتسكن مع ابن ثابت حائك الثياب الذى سيصنع لك الملابس الملائمة • وسيكون ابنك تحت رعايتى فى أمان • فى أثناء غيابك ، فلا ينبغى أن تفكر الا فى مشروعك العظيم •

لقد تزعزع الآن السلام الذى سيطر على تفكير كولمبس طوال أيام انتظاره لعودة الأب بيريز • وحل محله احساس بعدم الاطمئنان والشك وكأنه كان يقف على عتبة باب موصد تكمن خلف واجهته أسرار لا يعبأ بحلها •

وقال كولمبس فى هدوء : « انى أشكرك ، ياأبى ، من أعماق قلبى لكل مافعلته لأجلى » •

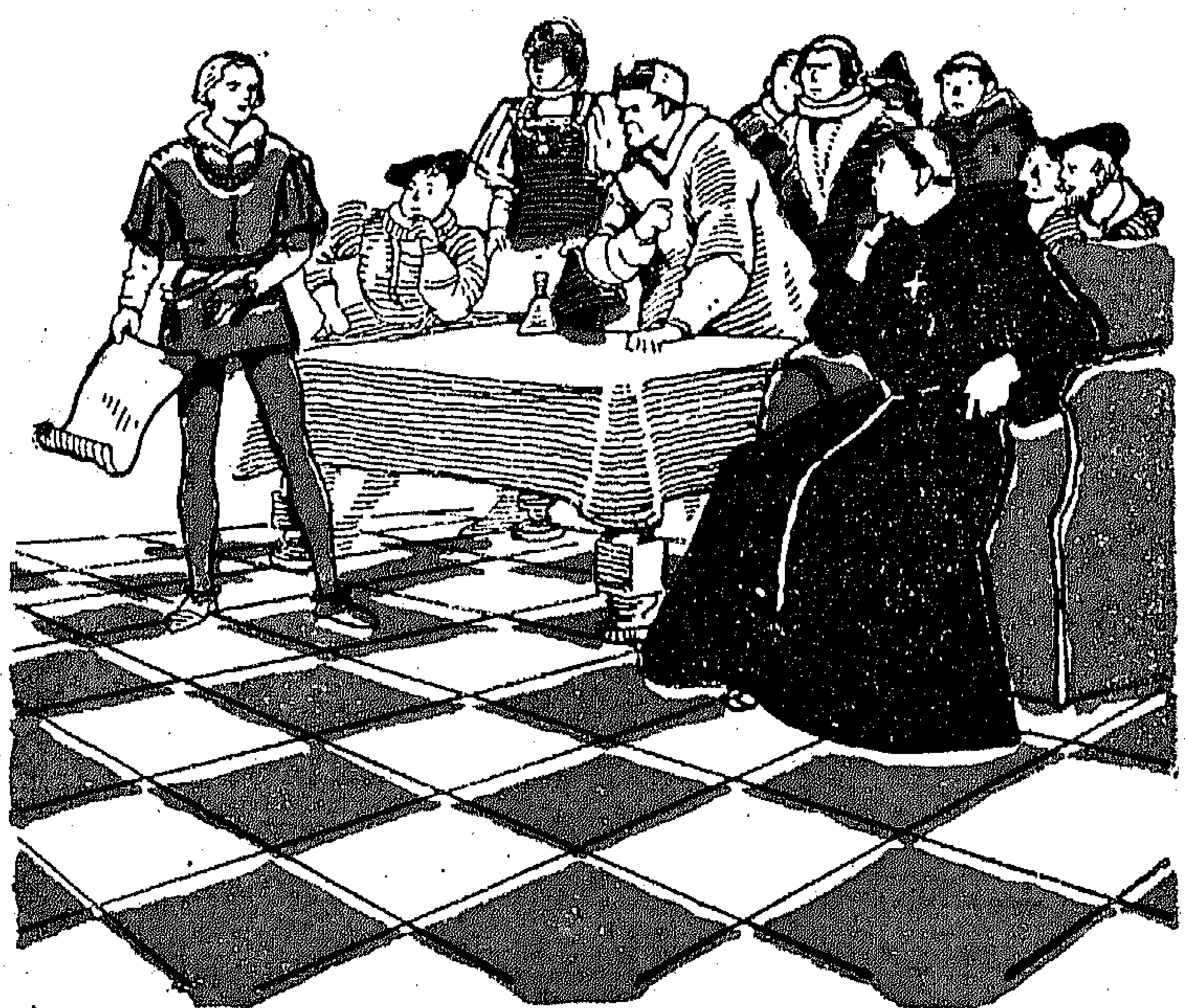
وقال بيريز محذرا : « يجب أن تسير بحذر يابنى ، فهناك رجال فى سلامنكا سيعتبرون آراءك هرطقة • واذا لازمك سوء الحظ فآثرت غضب المكتب المقدس لمحاكم التفتيش ، فان الملكة نفسـها سوف لا تستطيع انقاذك » •

وابتسم كولمبس ابتسامة أسيفة : « سأحاول أن أمشى بحذر ، وان كانت هذه ليست مشيتى الطبيعية •• باركنى أيها الأب الطيب » •

وركع كالابن المطيع وقبل يد الأب بيريز النحيلة المتغضنة •

الفصل الرابع

الحكم



نظر ابن ثابت ، حائك الثياب ، الى ضيفه باعجاب صريح . لقد كان كريستوفر كولمبس أبعد ما يكون عن ذلك الغريب رث الثياب الذى طلب اللجوء عند أبواب دير لارابيدا ، قبل ذلك بأسابيع . ولم يحدث أن استعمل ابن ثابت ابرته بطريقـــة فعالة كما يستعملها الآن . وارتدى كولمبس معطفا ذا رسوم غريبة مشغولة بخيوط من فضة ، فوق صديرية من مخمل زيتونى داكن اللون ، وجوربا وقباء قصيرا مماثلين . وزادت الأكمام المنتفخة من عرض كتفيه الطبيعى .

وارتدى قبعة مسطحة من المخمل من نفس اللون الزيتونى ثبت فيها ريشة بمشبك من الفضة • ولو رآه أحد على هذه الحال لقال انه رجل أعمال • ولكن خده البرونزى ومشـــية البحار وحدهما ينمان عن السنين الطويلة التى قضاها فى البحر •

وقال ابن ثابت ضـــاحكا : « ماذا سأفعل بملابسك القديمة ياسيد كولمبس ؟ »

« أعطها لأول متسول يطرق بابك » • ومد حائك الثياب يده الى أحد الجيوب وأخرج غلافا من الجلد الرقيق-مغلقا بختم ثقيل من الشمع الأصفر ممهور بعلامة • وقال : « لقد أحضر هذه الرسالة أحد خدم صاحب السعادة دون لويس دى سانتانجل ياسيدى » • وأضاف ابن ثابت بمكر : « يبدو أن الصديرية الجديدة قد تمت فى أوانها ضبطا ؟ ان دى سانتانجل هو أحد الأسماء المشهورة فى البـــلد » • دون لويس دى ســـانتانجل ، وزير الخزانة الملكية ••• وازدادت نبضات قلب كولمبس عندما قص الخاتم الذهبى • لقد مضى عليه أكثر من أسبوع وهو يريح قدميه فى مدينة الجامعة هذه ، حيث علم من الأوامر الصادرة من البلاط الملكى أن الدكاترة ذوى العـــلم سوف يجتمعون للحكم على خطته • وأجال نظره فى الرسالة بصبر نافد • فوجد أنها تخبره بأن القضاة سيستقبلونه فى الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم نفسه فى قلعة سلامنكا •

« أظن أنك لا ترغب فى شىء آخر ، ياسيدى ؟ » « لا شىء • تستطيع أن تذهب يا ابن ثابت » • وبعد رحيل حائك الثياب أخذ كولمبس يخطو خطوات عصبية جيئة وذهابا الى الأمام والى الخلف • وبدت الحجرة ضيقة جدا بالنسبة لحجمه • وشعر بأنه ليس مرتاحا فى زينته الجديدة • كم كان يتوق الى أن يشعر مرة أخرى بسطح

السفينة تحت قدميه • لقد مضى عليه وقت طويل على البر وأصبح جسده يحن الى العمل الشريف •

ولكن خطوة المحاكمة جعلته يثوب الى رشده • وقد سبق أن قرر دى سانتانجل أن عشرة من بين الأربعة عشر قاضيا الذين سيستمعون اليه هم من رجال الكنيسة • وفكر كولمبس فى مرارة : « وهكذا سأسأل راهبا عن ادارة السفينة » • ولكنه كان على بينة من المخاطرة فى معارضة معتقدات رجال الدين المتقدمين فى السن لأن محاكم التفتيش كانت فى أوج قوتها • وأعدم آلاف من الضحايا بتهمة الهرطقة • وكان الناس على حذر من اظهار أفكارهم الخاصة ، لعدم معرفتهم الصديق من العدو • وكانوا يسلكون بتحفظ ، خوفا من أن يؤخذوا بفلتات اللسان • فلم يكن أى انسان آمنا ، ولم يكن أى انسان من البراءة بحيث تصعب البرهنة على أنه مذنب • لقد كانت محاكم التفتيش سلطة مرعبة أعظم من سلطة الملك •

الام سيئول أمر كولمبس ؟

هل ستتوافر لخطته مناقشة شريفة ؟ أو أنه سيجد نفسه وجها لوجه أمام محكمة ؟ لقد كان متأكدا من شىء واحد : أنه يجب أن يقف ثابتا • فمهما حدث يجب ألا يفقد أعصابه الآن ، ومن المؤكد أنه لم يبق حيا طوال هذه السنين من التجربة والحرمان ليهلك كما يهلك الهرطيق •

كانت شرفات سلامنكا العالية ترتفع باسقة الى السماء • ودقت أجراس الكاتدرائية الدقة الأولى من الساعة الرابعة عندما أسرع شبح يرتدى مخملا زيتونى اللون عبر قنطرة رومانية قديمة •

وعند بوابة القلعة الخارجية ، فحص الحارس خاتم رسالة دى سانتانجل بامعان ثم سمح لحاملها بالمرور دون اعتراض • وعند البوابة الداخلية قال البواب : « ان الدكاترة النبلاء يتوقعون حضورك ياسيد كولمبس • انهم يتناقشون منذ ساعتين » •

وقاد البواب كولمبس عبر ممر مظلم .ووقف أخيرا أمام بابين مصفحين بالحديد • وترامت من الجانب الآخر همهمة أصوات • وارتفع صوت ـ كأنه غاضب ـ فوق الأصوات الهامسة • وفتحت الأبواب • وخطا كولمبس الى داخل حجرة ذات قبة شاهقة الارتفاع مليئة بالظلال • واجهته منضدة على شكل « حدوة » الحصان ، مغطاة بمخمل أحمر وعليها أدوات كتابية • وتعرف على خريطته ، وصفحات من حساباته ، وتجمع الأربعة عشر رجلا حول هذه المنضدة يشيرون اليها بأصابعهم • وفى ضوء الشموع الخافت بدت الأردية البيضاء والعباءات السوداء التى كان يرتديها الدومينيكان وقماش الفرنسيسكان البنى ، ولكن أغطية الرأس كانت تظلل وجوه معظم الرجال • وكان هناك أربعة آخرون أنبأت قبعاتهم وشارات وظائفهم البراقة أنهم أساتذة الجامعة •

لم يلحظ أحد وجود كولمبس لبرهة ، فقد كان الانتباه مركزا على المتحدث بصوت حاد • وعندئذ أمسك أحدهم بذراع كولمبس ، وجذبه الى كرسى • وكان هذا هو دييجو دى ديزا رئيس الرهبان الدومينيكان •

وهمس قائلا : « اصمت ! فسيأتى دورك عاجلا لتتحدث » •

وخيم شعور بالتشاؤم على كولمبس عندما استمع الى المتحدث الذى استحوذ على مثل ذلك الانتباه المذهل وتوهجت عينا الرجل كالجمرات فى حفر قاتمة • وكان أنفه يشبه منقار صقر • وصاح فى


دون لويس

صوت كالصرير : « وأخيرا ـ من هذا المتسول ، هذا الدعى ؟ انه ليس ابنا لاسبانيا ، وهـــو ليس من رعايا حكامنا الأمجاد • انه أجنبى ذو أصل مشــكوك فيـــه ، جنوى كان أهله نساجين ، وجنوا مهد الهرطقة منذ زمن سحيق !!

وجلس المتحدث بغتة وهو ينزع الغطاء عن رأسه • وانتشر همس يدل على الموافقة خـــلال السكون المفاجىء • واقشــعر قلب كولمبس •

وقام رئيس الدين الدمينيكانى ورفع يده طالبـــا السكوت • وقال دى ديزا : « ان السيد كولمبس بيننا الآن أيها السادة • انه يقف على استعداد للاجابة عن أى ســـؤال • فليتقدم الذين لديهم أسئلة بتوجيهها بنظام » •

وجاء صوت هرناندو دى تلافيرا ، أسقف افيلا ، رفيعا حادا من وســـط المنضدة • ولم يستطع كريستوفر كولمبس أن يكتشف أى بارقة من الرقة أو العطف فى تلك الوجوه ذات الملامح البارزة الجامدة •

وقال الأسقف فى صوت يشوبه شىء من السخرية : « لقـــد درسنا الخريطة والحسابات التى عرضها علينا السيد كولمبس بعناية • ويجب أن نسلم بأن صانع الخرائط هذا الذى من جنوا يظهر قدرة كبيرة على الرسم • ولكن مما يؤسف له ، أيها السادة ، أنه لا يريد أن يستريح قانعا بحرفته ! »

سرت بين المجتمعين ضحكة مكتومة تعبر عن طربهم • وضـــم كولمبس قبضتيه ، وتوهج وجهه ، وجف حلقه •

واستمر دى تلافيرا يقول : « هناك بيننا من يعجب لماذا يتنازل رجال العلم المكرمون فى طول البلاد وعرضها ، ليناقشوا دعيا • ولكن هذا لا يهم • فقد أصدر حكامنا الأمجاد أمرهم فأطعنا • فما هو ذلك المشروع الذى يود كولمبس أن يقدمه ؟ »

وهنا توقف الأسقف عن الكلام بقصد التأثير فى السامعين ، ونظرته الساخرة تلهب صانع الخرائط الذى من جنوا • وتكشفت شفتاه الرقيقتان عن أسنانه : « انى أتردد أيها الأصدقاء ذوو العلم ، فى أن أوافق عليها !! انها قائمة على فكرة أن الأرض على شكل كرة • آه ، انى أسمع ضحككم بالفعل ! وهذا يغنينى عن قول المزيد » •

ونظر دى تلافيرا باحثا عن كولمبس : « نحن الآن على استعداد لأن نسمع ماتود أن تقول ، أيها السيد صانع الخرائط » •

وقف كولمبس ببطء • وأجال نظره بثبات حول المنضدة ، متوقفا لحظة عند كل وجه ، كل بدوره ، وكأنه يود أن يحفر أشكالهم فى ذاكرته الى الأبد • وهدأ الغضب الذى كان يحرقه • وكان صوته ثابتا هادفا عندما قال : « انى أعرف نقائصى أيها السادة ذوو العلم • أنا رجل عادى ، بلا أمجاد أو أسلاف • ولدت فى دريتو دي بوتشللو فى جنوا ، وأنا أعرف طعم خبز الفقر • ولم آت لأقف أمامكم كطالب علم أو كنبيل من النبلاء • لقد جئت كملاح ـ ملاح أستمتع بساعات طويلة من التفكير • وخلال هذه الساعات سعيت لأن أتعلم أكبر قدر ممكن عن هذا العالم ، من خرائط وحسابات المفكرين العظماء ، السابقين والحاليين • وكذلك من ملاحظاتى الشخصية • لقد احتفظت بعينى وأذنى وعقلى متفتحة » •

وعندما ازداد ثقة ، تحمس لمحنة مواجهة هذا التحدى • وبين أن فى المناقشة حول استدارة الأرض ، انقسمت أكثر العقول علما •

ولكن ، اذا قبل أحدها النظرية ، فانه يتبع ذلك ــ كما يتبع النهار الليل ــ أنه بالابحار غربا لابد من الوصـول الى بلاد كاثاى وسيبانجو الشرقية • وقد اتضح الدليل : قطعة الخشب الكبيرة التى جرفها التيار، وجذوع الأشجار المحفورة التى حملتها الأمواج الى شاطىء الآزور » •

وقاطعه أسقف أفيلا قائلا بفظاظة : « انك تتحدث الآن عن أشياء لمجرد أنك سمعت عنها • ولكنك لا تستطيع أن ترينا اياها • هل علينا أن ندخل فى اعتبارنا دليلا قائما على السماع ؟ »

واتجه كولمبس اليه ثانية بسرعة قائلا : « ان هـــذه الأشـــياء معروضة الآن فى لشبونة • وقد رأيتها بنفسى • وأنتم أيها السادة تستطيعون بسرعة أن تطلعوا على وجودها » •

ورد عليه الأسقف قائلا : « ولكنك لا تشرح لنا كيف نتوقع أن تبحر عائدا اذا ما أبحرت منحدرا مع مياه البحار ، التى تحيط بالكرة الأرضية ، كما تدعى » •

وقال دى ديزا مقاطعا : « هذا صحيح ، فأى جواب لديك عن ذلك ؟ »

فأخبرهم كولمبس بشجاعة : « هذا أمر يفهمه الملاح بسرعة • وأولئك الذين ذهبوا الى البحر منكم يعرفون أنه عندما تبدو أشرعة السفينة العليا فى الأفق ، فمعنى هذا أن السفينة نفسها سرعان ما تظهر بكاملها • فكيف يكون ذلك ؟ »

ولكن دى ديزا اكتسح اجابة كولمبس بحركة سخرية وقال : « ألم تسمع قط عن السراب؟وظواهر الضوء والمكان التى تخدع العين؟ ان قبول هـــذه الأشياء كحقائق كقبول فكرة أن أناسا يعيشون على الجانب الآخر من الأرض » •

وظهر صوت من احدى الجهات يتساءل : « قيل لنا انه سبق أن قدمت نفس هذه الخطط الى الملك جون ملك البرتغال • وانه رفض الاستجابة لك • هل الأمر كذلك ؟ » فأجاب كولمبس : « هذا صحيح، وكانت خيبة أملى مريرة • ولكننى أرى مشيئة الله فى هذا الرفض • لقد قدر الله أن يوهب فرديناند وايزابللا هذه الفرصة العظيمة • لقد فحصتم خريطتى ، ســـادتى ، ودرستم حساباتى • ولكن تذكروا ـ أنى أنا نفسى لست سوى أداة أرسلها ذلك الذى يرشدنا جميعا للوفاء بما تتعهد به هذه الخريطة • فانى لا أبحر بوساطة البوصلة فحسب ، بل وبضوء الايمان الوضاء » •

وعندما تلاشت كلماته الأخيرة فى السكون ، دوى رنين جرس صلاة الغروب فنهض الجالسون • ولمسوا أرديتهم ، وسحبوا أغطية رءوسهم فوقها •

وتكلم دييجو دى ديزا فقال : « لقد استمعنا اليك بكل انصاف أيها السيد صانع الخرائط • ان المجلس سيذهب الآن للتداول » •

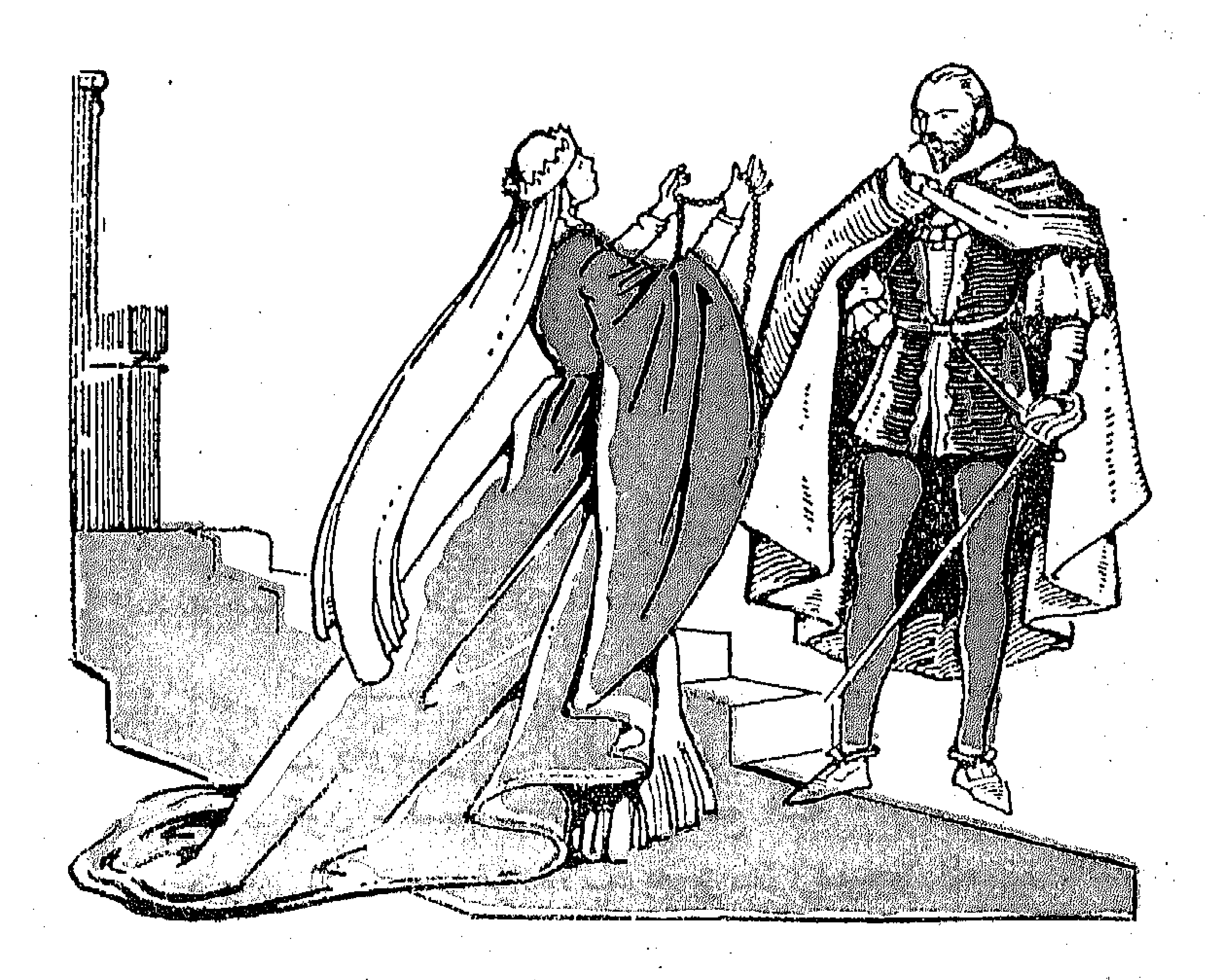
وانتهى المؤتمـــر • وخرجوا من الحجرة فى صمت ملتفين فى عباءاتهم منكسين رءوسهم • وراقبهم كولمبس وهم ذاهبون • وكان يعرف ماذا سيكون حكمهم دون أن يستمع اليه • وكان يفكر وهــو يرتعش متوتر الأعصاب فى الأب بيريز ، ودييجو الصغير اللذين كانا فى بالوس ينتظران فى شوق كلمة عن نجاحه • كيف يستطيع مواجهتهما الآن ؟ كيف يمكن أن يحتمل أن يخبرهما مرة ثانية أنه قد فشل ؟

وأمســـك شخص بذراع كولمبس • وقال البواب بخشونة : « تعال معى ياسيد • هذا وقت اغلاق الأبواب • أم أنك تفضل أن تحبس طوال الليل مع الفئران ؟ تعال معى الآن » •

وعدل كولمبس كتفيه ، ورفع رأسه عاليا ، وتبعه •

الفصل الخامس

صاحبة الجلالة تبتسم



أعلن رجال سلامنكا ذوو العلم حكمهم المنتظر : « ان مشروع صانع الخرائط للعثور على طريق الى الشرق الأقصى بالابحار غربا غير جدير بالاهتمام • انه مؤامرة محتال لابتزاز أموال من خزانة مفلسة • دع الجنوى يترك اسبانيا فى أقرب فرصة » •

وكانت الأسابيع التالية لهذا أكثر أيام كريستوفر كولمبس مشقة • انه فقد ثقة الناس فيه كل مرة ، وسخر منه النبلاء والعامة

على حد سواء ، واقترب من اليأس • ولو كان أقل تمسكا بهدفه لاعترف بالهزيمة • ولكن ، كان فى طبيعة هـــذا الرجل عرق من الصلابة لا يعترف بالفشل • ان من لا يتراجع يجب أن يتقدم • لقد التزم خطته خلال سنوات عاصفة كثيرة • ولن ينحرف عنها الآن • وهو لن يترك اسبانيا • حتى يقف أمام فرديناند وايزابللا نفسيهما •

ولقد زودته صداقة دون لويس دى سانتانجل ، التى لم يكن يتوقعها ، بشىء من السلوى فى هذه الأزمة ؛ اذ كان مما يثير الدهشة أن عظيما عالى المكانة ، كحامل أختام الملك ، يمد يد المساعدة لأجنبى وضيع الأصل • بل ذهب دى سانتانجل الى أبعد من هذا اذ تكفل بقضية كولمبس بايمان صادق •

وقال دون لويس : « لقد ساءت الأمور بالنسبة لك أيها المسكين كريستوفر ولكن لا تيأس • سيأتى يوم يضطر فيه حكماء سلامنكا الى الرجوع فى كلامهم • لقد وعدت الملكة بالاستماع اليك بمجرد انتهاء الحرب » •

وهز كولمبس رأسه فى أسى قائلا : « لقد جعلت الوعود لكى تخلف • من ياترى يعرف هذا أفضل منى ؟ »

« اصبر أكثر من هذا » •

« لقد تعبت من انتظار عطف الملوك • انظر ، يادون لويس ، ان الزمن يجـــرى كالرمال فى اناء زجاجى • ولست أملك سنوات أضيعها أكثر من هذا • فأنا فى الثانية والأربعين من عمرى ــ وشعرى قد وخطه المشيب » •

فقال الرجل العظيم متذمرا : « ليس أكثر من شعرى أنا ، فى حين أنى أصغر منك سنا • ان الشعر الأبيض علامة على الخدمة ، أيها

السيد الطبيب · فلتكن فخورا به · أما عن الانتظار أكثر من هذا ، فتأكد أن الانتظار لبضعة أسابيع لا يحدث فرقا بالنسبة لمن انتظر طويلا » ·

وبهذا ، اضطر كولمبس لأن يهدأ فى قناعة ·

رحل البـــلاط الملكى الى غرناطة ، آخر معقل مغربى قوى فى اسبانيا · وكان الملك أبو عبيدة ملك المغاربة يبدى مقاومته الأخيرة اليائسة فى قلعة الحمراء المنيعة ·

وأصر دى سانتانجل ، الذى كان يستعد لأن يصحب الجيش الملكى ، على أن يرافقه كولمبس · وكان من الحكمة ، كما أشار حامل أختام الملك ، أن يظل أصحاب الجلالة متنبهين دائما لوجوده · فسوف لا تطول الحرب حتى نهاية الشـــتاء · واذا ماكسبت الحرب ، فان كولمبس قد ضمن استقبال البلاط الملكى له · لقد وعدت الملكة بهذا ·

ومهما يكن هذا التشجيع بسيطا ، فقد عاش كولمبس على أقل منه · وقبل دعوة حامل أختام الملك شاكرا · وهكذا انتقل من مسكن ابن ثابت ـ حائك الثياب ـ المتواضع الى حاشية الأمراء الفخمة الخاصة بدون لويس دى سانتانجل · ومع البيارق المرفرفة المزركشة باللونين الأزرق والفضى تحرك موكب الفرسان المتألق جنوبا تحت شمس آخر الصيف · وكان على رأس الفرقة دون لويس مرتديا ثيابا حربيـــة للاستعراض العسكرى ، وبجانبه كريستوفر كولمبس · ومن ورائهما عشرون من السواس والتابعين ، وصف من دواب الحمل يكون مؤخرة الموكب ·

بعد ثلاثة أيام ، رأى كولمبس خيام الجيش الملكى تفترش سهل غرناطة كأنها مدينة واسعة · هنا كان يعسكر الملك ونبلاؤه خارج بوابة القلعة العنيدة · وهنا ، أيضا ، كانت الملكة ايزابللا تركب بجوار زوجها المحارب ، مرتدية درعا ·

خفق قلب كولمبس ، ولم يكن للاضطراب الذى تسببه المعركة ، بل لشعوره بأنه قد أصبح يقف أخيرا قريبا من الملك والملكة ٠ انه لم يخسر قضـــيته بعد ٠ وتجدد فى قلبه التفاؤل الذى طالما أعانه لسنين كثيرة ٠ من المؤكد أنه سينجح !! ونظر عبر السهل المتلألىء تجاه حوائط غرناطة المعدة للقتال والتى كانت تنهار حجرا حجرا ٠ وقال لنفسه : « كل هذا لكى تهزم مدينة ، ومع ذلك فأنا أعرض عالما جديدا بأكمله وليس هناك من يعبأ ؟! »

ضيق الحصار بلا هوادة ٠ ولكن أبا عبيدة ورجاله كانوا محاربين عنيدين ، وانقضى صيف وكان الشتاء على الأبواب ٠ وحل عيد الميلاد وانقضى ٠

واهتزت القلعة المحاصرة تحت الهجوم الراسخ ٠ ولكنها لم تسقط الا فى اليوم الثانى من العـــام الجديد ٠ وخرج أبو عبيدة ، الملك المغربى ، ليسلم مفاتيح المدينة للظافرين ٠

واجتـــاح جيش فرديناند فرح هائل ، وتقدم حاملو الأعلام الملكية الذين جاءوا من أراجون وقشـــتالة الى برج كولمار لاحلال شعارهم محل الهلال ٠

وفى ظهر أحد أيام يناير ذات الاشراقة القصيرة تقدم موكب فرديناند وايزابللا المنتصر عبـــر البرجين المتماثلين المكونين لبـــوابة العدالة ، واحتل قصر قلعة الحمراء ٠ وبذلك انتهى صراع سبعمائة سنة ٠ وكان يركب مع هـــذا الحشد الصاخب المنتصر كريستوفر كولمبس ٠ من ياترى سـيكترث الآن بنبوءة تافهة لبحـــار عن عالم جديد ؟ انه لمن المؤكد أنهم سينسونه فى فورة النصر ٠

ولكنه لم يعمل حسابا لمساعدة دون لويس دى سانتانجل ٠ فلم تكد تمضى خمسة أيام حتى جاءه حامل أختام الملك مسرعا ، يفعمه

الاضطراب • وقال متهللا : « أخبار طيبة ، ياكريستوفر ، ياصديقى ! ان صاحبى الجلالة مستعدان لاستقبالك الآن • انهما يأمران بحضورك فورا الى الحمراء • آه ، كنت أعلم أن الأمر سيكون كذلك • ان الطريق ممهد • ولكن بقى دى تلافيرا وحده ليعارضك » •

فرد الآخر : « دى تلافيرا ؟ » عدوه • حقا ان الطريق ممهد •

وقال له دون لويس : « لقــد رقى الى وظيفة رئيس أساقفة غرناطة ولكن ليس هناك الكثير مما تخشاه • انه الآن يتعب صاحبى الجلالة بشعوره بأهميته الذاتية•وهاقد جاءت أخيرا فرصتك العظيمة. آه ياكريستوفر، يجب ألا تفشل ! تعال، يجب أن ننظف صديريتك بالفرشاة ولا مانع من غرزة أو غرزتين بالابرة » •

أقام الحكام الاسبان بلاطهم فى القاعة الذهبية الرحبة فى قصر الحمراء • وكان كولمبس قد استدعى بأمر ملكى ، للمثول بين يدى الملك ، فى هذا المكان • فأزاغت الزخارف المرمرية فى القصر المغربى نظره • وكانت النافورات المتدفقة تلطف الهواء ، والممرات الطويلة التى قامت على جانبيها الأعمدة تختفى متلاشية فى الظلام • وغطيت جدران بهو الاستقبال الفسيح والذى كان يؤدى الى ساحة الأسود ، بطنافس حريرية جاءت من دمشق وفارس •

وعلى كل جانب كنت تجد بريق الفسيفساء ذا الجمال الغريب ، والقرميــد المصــقول كالزجاج والخشــب المحفور • كأنه المخرم (الدنتلة) •

وجلست ايزابللا سيدة قشتالة ، وفرديناند سيد أراجون ، على كراسى مرتفعة من الخشب المذهب ، أقيمت على منصة منخفضة وسط هذه الأبهة • وكان بجانب هؤلاء الحكام النبلاء رئيس أساقفة غرناطة ، مرتديا ملابس أرجوانية ، فالكهنة ورجال الدين الأقل مرتبة

مرتدين ملابس جميلة مزركشة وقلنسوات ، فالنبلاء المتألقون وسيداتهم مرتدين الحرير والمخمل .

ان رجلا أقل ثقة بنفسه من كريستوفر كولمبس كان سيخجل من ملابسه البالية وسط هذا الجمع الراقى . واذا كان لابد أن يواتيه الحظ الحسن ساعة ما ، فها هى ذى الساعة قد حلت .

وأحاط نظره بتفاصيل كثيرة فى الحال : الملك الطويل المعتد بنفسه فى درعه المذهبة التى كان يرتديها تحت وشاح أبيض عليه صليب أخضر ، ووجه ايزابللا البيضاوى تماما ، وعيونها المتأملة ، وابتسامتها المشجعة فى وهن ، والتى ملأت قلبه دفئا . وكان يلتف حول عنقها الجميل عقد من الزمرد ذو شعبتين سقطت عليه أشعة الشمس فعكسها وهجا كالنار الخضراء .

ووقف كاتب البلاط الملكى قائلا فى صوت منغم : « السيد كريستوفر كولمبس ، من جنوا ، يطلب المثول بين يديكم يا صاحبى الجلالة بقصد شرح طريق جديد الى الشرق الأقصى » .

سرت همسة بين المجتمعين ، لأن اسم صانع الخرائط الجنوى كان مألوفا لدى أسمى الفرسان كما كان لدى أحط السعاة .

وأتت ايزابللا بحركة رشيقة تدعوه قائلة بصوتها الذى تطرب له الآذان : « لقد جعلناك تنتظر طويلا ياسيد كولمبس . ان صبرك يفوق اعجابنا . أما وقد انتهت الحرب فانك سوف تخبرنا عن حلمك العظيم » .

ركع كولمبس على ركبة واحدة فى خضوع واحترام ، ولكن الملكة طلبت منه الوقوف . فهمس قائلا : « يامولاتى ، انها بصيرة أكثر منها حلما ! »

« انك تتحدث بثقة زائدة عن الحد ، ياسيد » •

« انى أتحدث بايمان عميق ياصاحبة الجلالة •• ايمان لم يتخل عنى منذ قرأت فى بادىء الأمر ماكتبه ماركو بولو » • وازداد صوت كولمبس حماسة وثقة : « انك سوف تستردين الثروات التى كتب عنها بولو • هنـــاك فى كاثاى ثروة أكبـــر من ثروات أوربا كلها مجتمعة • لقد رأى منازل مسقوفة بالذهب ، وأطفالا يلعبون باللآلىء فى الوحل ، وأمراء يركبون أفيالا غلفت أنيابها بدرر تفوق قيمتها مايكفى لافتداء ملك • مولاتى ، انى أرهن حياتى لألقى بهذه الكنوز تحت قدميك ! »

قاطعه فرديناند ذو التفكير العملى قائلا بجفاء : « لقد سبق أن سمعنا عن مشروعك بتفصيل كبـــير • انك تتحدث وكأن أحلامك تحققت بالفعل • ولكن حكماء سلامنكا رفضوا الموافقة على خطتك • لربما تشك فى مدى احاطتهم بالعلم ؟ » •

« انها ليست احاطتهم بالعلم التى أشك فيها ياسيدى ، انى أشك فى حكمهم •• انهم لم يجرءوا على الموافقة على المخاطرة بثلاث سفن ـ فى حين لا تكفى ألف سفينة لتعود بكنوز كاثاى » •

كان فرناندو دى تلافيرا ، رئيس أساقفة غرناطة ، يقف ملاصقا للملكة • وانفرجت شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة ساخرة • وقال فى صوت يشبه هرير القط : « لقد استمعوا الى السيد كولمبس فى سلامنكا بانصاف • وأمتعنا بقصص الملاحين والقصص الذى لا أصل له • ولم يكن لديه أى دليل لتدعيم نظريته • من المحتمل أنه عنده الآن دليل جديد يريد أن يعرضه » •


ايزابلا

فأجاب كولمبس محتدا : « أى انسان سيتوافر له الدليل على وجود بلاد فيما وراء المحيط الغربى ما لم يقم بالرحلة الى هنـــاك ليكتشف ذلك ؟ أعطنى ثلاث سفن فقط وسوف تساعدنى كل قوانين العلم المعروفة على اكتشاف أقصر الطرق الى مملكة الخان . ولكنى أتوسل اليكما ياصاحبى الجلالة ألا تتأخرا أكثر من ذلك . لقد سرق البرتغاليون خرائطى وحساباتى . وقد تكون سفنهم فعلا فى طريقها الآن » .

وقال فرديناند محتجا : « ولكن السفن يجب أن يدفع لها شيء أكثر من الوعود . وكذلك المؤن والرجال ، والبنادق . ان مثل هذه البعثة الاستكشافية التى تقترحها قد تكلف ٥٠ ألف فلورين (١) ذهبى ، ولكن خزانتى فارغة » .

« حقا ، ياسيدى ، ان اسبانيا الآن فقيرة ، ولكنها سوف لا تبقى طويلا هكذا » .

ثم اتجه كولمبس الى الملكة وقال : « ان اسبانيا وحدها فى امكانها أن تنشر المسيحية التى ستنير حياة الوثنيين فى الأرض من أقصاها الى أقصاها ! »

كان تأثر ايزابللا واضحا بهذه الحجة ، ولكن قبل أن تستطيع الكلام قال دى تلافيرا بخبث مقاطعا : « لقـــد أهملنا أمرا تافها ، ياصاحبى الجلالة . اننا لم نسأل السيد الذى من جنوا ماذا يتوقع فى مقابل خدماته ؟ »

---

(١) فلورين ـ عملة استخدمت فى عصور وبلاد مختلفة . وهى تساوى شلنين انجليزيين .

(المترجم)

أظهرت السرعة التى أجاب بها كولمبس تفكيره السابق فى هذا الأمر • فقال فى صوت ثابت : « انى أطلب عشر كل المكاسب الناتجة عن مكتشفاتى » •

قال رئيس الأساقفة فى صوت كالببغاء : « العشر ؟ انك تسأل التاج أن يمدك بالسفن والرجال والمؤن والمال ، فى حين أنك أنت نفسك لا تخاطر بشىء مطلقا ، ومع ذلك تطلب عشر المكاسب ؟ » فأجابه كولمبس مذكرا : « انى أخاطر بحياتى ياصاحب النيافة • انى أخاطر بمهارتى كملاح • كما أن الفكرة التى يقوم عليها كل المشروع هى فكرتى • هل طلب العشر شىء كثير ؟! »

وسأله الملك : « هل هذا هو أقصى حد لمطالبك ياسيد ؟ »

« كلا ، ياسيدى • انى أطلب بعد اذنك أن أتشرف بلقب « قائد أسطول المحيطات » وزيادة على ذلك فانى أطالب بحقى فى لقب دون (١) ، ليس لى فقط ، بل ولورثتى الى الأبد » •

فصاح الملك وكأنه لا يصدق ما سمعه : « فلترحمنا السماء !! ان مثل هذا اللقب سيرفعك الى مرتبة مساوية لمرتبة أى عظيم من عظماء اسبانيا » •

« سيدى ، سوف لن يفعل أى عظيم أكثر من هذا ليستحق هذا الشرف » •

وصاح دى تلافيرا : « لقد جن الرجل ! انى أعجب أنه لا يطلب التاج الملكى !! »

---

(١) دون : لقب اسبانى ومؤنثه دونا •

والتفتت ايزابللا تجاه رئيس الأساقفة والغضب يشوب نظرتها الآمرة وقالت ببرود : « انك تفسد الأمر بشدة حرصك عليه يادى تلافيرا • ان السيد كولمبس يقف هنا تحت أمر صاحب الجلالة » •

فقال رئيس الأساقفة متملقا : « اذا كنت قد أخطأت ياصاحبة الجلالة فان هذا لحرصى الشديد على مصالح جلالتك • ان الحلم الجميل الذى يعرضه هذا الرجل • ماهو الا فقاعة • اذا انفجرت ستصبح اسبانيا أضحوكة العالم » •

فأجابت الملكة : « لقد اكتسبت اسبانيا أمجادا تحميها من ضحك العالم عليها » • ورق صوتها عندما التفتت الى كولمبس قائلة : « هل هذا ياسيد ، الحد الأقصى لمطالبك ؟ »

فأجاب كولمبس بعناد ، اذ لم تكن لديه فرصة للتراجع : « ليس تماما ، ياصاحبة الجلالة • فانى أطلب النيابة عن الملك عن كل البلاد التى من اكتشافى ، وسلطة نائب الملك مدى الحياة وبعد الممات » •

وساد سكون تشوبه الدهشة عقب هذه الملاحظة • وانفجر الملك قائلا : « والقديس جيمس !! ان ماتطلبه لم يسمع عنه أحد ، ياسيد ! ولا يصدقه العقل » •

وأجاب كولمبس بسرعة : « انى لا أستطيع أن أمثل جلالتك فى البلاد الأجنبية بأقل من هذه السلطة • وستكون اكتشافاتى نعمة لاسبانيا على مدى الزمن • هل أقبل أجر خادم والحال هذه ؟ ان من يلقى بثروة لا حد لها تحت أقدام مليكه لا يستحق أن يخرج من المسألة صفر اليدين » •

فقال الملك مذكرا : « ولكن هـــذه الثروات مازالت على الجانب الآخر من كرتك النفيسة • انك تتحدث وكأنها بين يديك بالفعل » • وأحاط القلق بنفس دون لويس دى سانتانجل عنـــدما رأى النجاح يفلت من بين أصابع صديقه للمرة الثانية وقال متوسلا: «ألا تستطيع أن تطلب أقل من هذا ياكريستوفر ؟ ان ما تطلبه غير عادى » •

« اذا أنا تحدثت بجرأة غير لائقة ، يادون لويس ، فانى ألتمس عفو صاحبى الجلالة • ولكنى لا أستطيع الرجوع فى كلامى • فاذا كنت سأمثل تاج اسبانيا أمام حكام آسيا ، فيجب أن أتحلى بكرامة مناسبة » •

وصدرت ضحكة مدوية من رئيس أساقفة غرناطة وقال هازئا : « كرامة مناسبة ، أرجو أن تلاحظ ياصاحب الجلالة أنه ، بدلا من أن يقنع بأجر قبطان ، ينوى هذا الصعلوك الذى لا وطن له أن يكدس الثروة • وذلك دون أن يسهم ببنس واحـــد من جيوبه الفارغة • سيجعل كاستيل مثار ضحك العالم بأسره » •

وقال فرديناند فى نبرة حادة : « هل صحيح ، ياكولمبس أنك عرضت نفس الخطـــة أولا على جون ملك البرتغـــال ، وأنه رفض مشروعك ؟ » وكان كولمبس قد احتفظ بورقة رابحة لمثل هذه اللحظة • وعندما لعب بها سمح لنفسه أن يبتسم وأجاب قائلا : « هذا صحيح ياسيدى ، ولكن معى الآن رسالة وصلتنى هذا الصباح من صاحب الجلالة تشارلز السابع ملك فرنسا » •

وارتفعت حواجب الملك دهشة وسأله فى برود : « حقا ؟ وماذا يطلب تشارلز الأحمق لنفسه هذه المرة ؟ » « انه يدعونى للذهاب فورا الى فرساى لعرض مشروعاتى عليه • هل سأثرى فرنسا ، ياسيدى بنفس النعم التى ترفضها اسبانيا ؟ » .

وكان السكون المفاجيء دليلا على أن كولمبس قد أصاب الهدف .

وأخذت ايزابللا تنقر بأصابعها مسند الكرسى · وبدت فى عينيها سحابة من الشك · وقالت : « افرض ، ياسيدى ، أن ذلك الأبله تشارلز ــ حقق ربحا من وراء تهييبنا هذا · ان الفكرة ذاتها لا تطاق » ·

وصاح الملك فى تردد : « ولكننا لا نملك المال الذى نخاطر به فى هذه المغامرة · ان المشروع بأسره لا يعتمد عليه كلية · لقد رفضه أكثر مستشارينا حكمة · والأمجاد التى يطلبها هذا الرجل لنفسه ··· » ·

وتجاهلت الملكة هذه الكلمات وقالت بصبر نافد : « تتوقف الأمجاد والألقاب على اكتشافاته ياسيدى · اذا فشل فماذا سيخسر التاج أكثر من تكاليف تجهيز الرحلة ؟ واذا نجح فان مطالبه أجر ضئيل حقا » ·

وقال رئيس الأساقفة متوسلا : « ياصاحبة الجلالة ، انه مما يلطخ كرامة التاج ان ترفعى هذا المغامر الى مكانة عالية · انى أتوسل اليك أن تقدرى ··· » ·

وقاطعته ايزابللا ببرود : « اننا لسنا فى حاجة اليك يادى تلافيرا لكى تذكرنا بكرامة التاج · هل تقول مغامر ؟ ألا يعنى شيئا أن يكون أول من يخاطر بارتياد المحيط المجهول ؟ » ونظرت الى الملك بعيونها السوداء : « اذا كان سيد أراجون مازال لا يستطيع أن يحزم أمره ، فانى ، أنا ، ايزابللا ، سوف أتصرف بالنيابة عن كاستيل ــ مملكتى » ·

وشهق المجتمعون معبرين عن دهشتهم · اذ لم يسبق لأحدهم أن سمع الملكة تتحدى زوجها بمثل هذه الصورة ·

وقالت ايزابللا لدى سانتانجل بحدة : « بماذا تقدر ــ أيها المستشار ــ تكاليف مثل هذه البعثة الاستكشافية ؟ »

فأجاب دى سانتانجل : « انها تكلف مبلغا لا يسبب الخراب • هل تسمحين ياصاحبة الجلالة بأن أذكرك بأن ميناء بالوس محكوم عليه بأن يمد التاج بسفينتين ؟ ويفى مبلغ ١٥ ألف فلورين بتكاليف سفينة ثالثة » •

وقفت الملكة متباطئة ، فبدت رشيقة • بهية الطلعة • وأشع الزمرد الذى حول رقبتها نارا خضراء بفعل أشعة الشمس المتسللة خــلال الأعمدة وفكت مشــبك قلادتها عن عمد • وألقتها فى كف المستشار قائلة فى عزم : « خذ هذه المجوهرات يادى سانتانجل • ارهنها باسمى للحصول على المبالغ الضرورية وارتسمت على وجهها ابتسامة رائعة الجمال غيرت من شكله • وقالت : « انهض ياكريستوفر كولمبس ! سيجرى اسمك مقرونا بالاعجاب على لسان كل انسان يوما من الأيام ، من أجل شرف اسبانيا ولمجد الله الأبدى » •

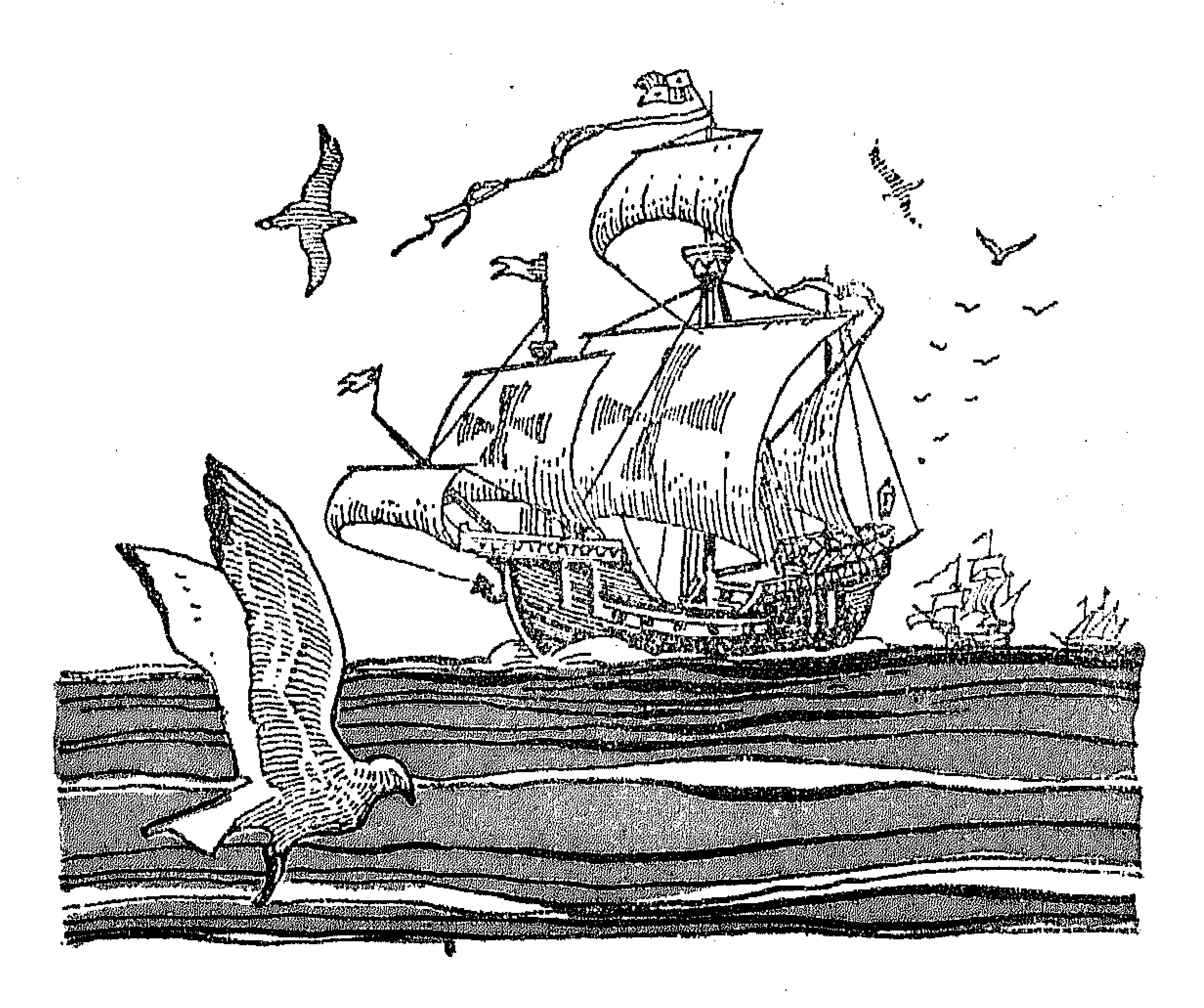
« الشجاعة والأمل ياسيد ! »

وقف كريستوفر مرفوع الرأس ، لقد ربح أخــيرا • وكانت مكافأته الرتبة ، والكرامة والسلطة • لقد أصبح سامى المكانة كأعظم نبيل فى البلاد • وسوف يستمتع ابنه الحبيب دييجو ، الذى كان ينتظره فى ثقة فى دير لارابيدا ، بحق تسمية نفسه دون ، يوما من الأيام •

وهمس فى صوت أجش : « مولاتى ، انى لأشكرك من أعماق قلبى • سوف لا أفشل • وسوف ألقى تحت قدميك بعالم جديد ، بمعونته تعالى » •

الفصل السادس

ثلاث سفن تبحر



كانت عودة دون كريستوفر كولمبس ، قائد أسطول المحيطات ، الى الدير نصرا وأى نصر • وقد حمل معه شروط الاتفاق موقعة من فرديناند وايزابللا تمنحه الوظيفة السامية ، وظيفة نائب الملك وحاكم البلاد التى قد يكتشفها • وأنعمت هذه الشروط عليه وعلى ورثته بلقب يجعله كفؤا للدخول فى طبقة نبلاء اسبانيا •

انه هو الذى هزأ به النبلاء ، وسخروا به فى الشوارع ، لم يعد فى حاجة لأن يركع أمام أى انسان سوى ملوكه الكرام ·

وأكثر من هذا ، قدمت الملكة دليلا خاصا على تقديرها بتعيين ابن كولمبس وصيفا لابنها الطفل دون جوان · وصحب هذا التعيين راتب قدره ٩ آلاف مارافيدس (١) ، وهذا تكريم كان يمنح فقط لأبناء أرقى الأسر · فلم تعد ثمة حاجة الى القلق على مستقبل دييجو ·

وبالرغم من أن كولمبس كان سعيدا لوجوده مرة ثانية مع ابنه ومع صديقه الكهل الأب بيريز ، فقد كان يتحرق شوقا بصبر نافد لاستكمال استعداداته لمغامرته العظيمة وللرحيل · واجتاحت الاشاعات عن رحلته الرهيبة ميناء بالوس الصغير ، مما ملأ أهل المدينة فزعا · وتذكروا حكم التاج،معلقا فوق رءوسهم كسيف مصلت فأصابتهم رعدة ·

وفى يوم أحد مشرق فى بداية شهر مايو كانت كنيسة القديس جورج مزدحمة ؛ فقد استدعى صيادو السمك ، والملاحون ، وعمال حقول الكروم ، وأصحاب الدكاكين ، وأصحاب السفن ، وعمال ترميم السفن ، وصانعو الحبال ، للاستماع الى تلاوة المرسوم الملكى الذى أحضره قائد الأسطول ، الذى عين حديثا من غرناطة · وهذا هو ماكان الناس يخشونه · وظلوا يراقبون فى صمت ذاهل الحاكم الذى وقف ليواجههم وهو يبسط رقا من الجلد · وكان ما قرأه الحاكم بصوت مرتفع مايلى :

---

(١) مارافيدى وجمعها مارافيدس ـ عملة اسبانية تساوى ١٤ شلنا انجليزيا تقريبا · وكان أول من استعملها فى اسبانيا أسرة المرابطين المغربية التى كانت تحكم فى قرطبة ·

(المترجم)

« نحن دون فرديناند ودونا ايزابللا ، وهما بفضل الله ملك وملكة قشتالة ، وأراجون ، وليون ، وغرناطة ، وتوليدو ، وبلنسيه ، وجزر البليار ، وجبل طارق ، وجزر الكنارى ، وكونتات برشلونة ، ودوقات أثينا ونيوباتريا وماركيزات أورستن الى مواطنى بالوس : نحيطكم علما أنه بسبب بعض أعمال التهريب التى ارتكبتموها ، مما يعتبر عصيانا لأوامرنا السامية ، فقد حكم عليكم بوساطة المجلس الملكى بتجهيز مركبين على حسابكم لخدمة التاج .

وقد فوضنا دون كريستوفر ، قائد أسطول المحيطات، للذهاب الى مناطق معينة من المحيطات الغربية فى سبيل مصالحنا . وفى ظرف عشرة أيام بعد الاستماع الى هذا الاخطار ، عليكم تجهيز المركبين المذكورين ووضعهما فى خدمته . وعلاوة على ذلك ، عليكم أن تبحروا معه حيثما توجه بالنيابة عنا .

لاتسمحوا لأى واحد منكم بالعمل بما يخالف ما أمرنا به هنا . والا حكم عليكم بغضبنا المتناهى وبغرامة قدرها ١٠ آلاف مرافيدس على كل منكم .

صدر فى مدينتنا غرناطة فى اليوم الثلاثين من ابريل من عام سيدنا المسيح ١٤٩٢ .

ونظر الحاكم بصرامة الى الجمهور ذى الوجوه التى ملأتها الرهبة والتى كانت تحملق فيه . وازدرد ريقه محدثا صوتا كالصرير ، وقال فى وقار : « ليحفظ الله صاحبى الجلالة » .

وعبر الوجوم الذى تبع تلاوة المرسوم عن الدهشة التى تصدر عن أناس مصدومين . ان الثورة ستأتى فيما بعد . فالنساء مروعات

والرجال ذاهلون ، لأنه لم يكن عليهم أن يعدوا سفينتين على حسابهم فحسب ، بل أمروا أيضا بالابحار مع هذا الأجنبى الى منطقة لم يعد منها أحد مطلقا ·

كانت بالوس تفخر بأن أكثر بحارة اسبانيا جرأة من بين مواطنيها ، وأن حب البحر قد ترعرع فى دمائهم ، ومع ذلك فمن منهم لم يرتعد خوفا عند سماعه القصص عن بحر الظلمات ؟ فمياهه كانت معروفة بأنها سوداء · وكان يقذف من جوفه وحوشا مرعبة هى من القوة بحيث انها كانت تستطيع أن تجذب أى مركب الى قاع أعمق الخلجان ·

هذه هى المنطقة التى أمر رجال بالوس بالابحار اليها·وانتابتهم رعشة ، ورسموا على وجوههم علامة الصليب · وبكت نساؤهم ـ أبا وزوجا وأخا وابنا ـ وكأنهم قد اختفوا فعلا من أرض الأحياء · وفى صمت وعناد أقسم الجميع فى نفوسهم أن يضعوا كل عقبة ممكنة فى طريق هذا المشروع المرعب · قائد أسطول المحيطات ـ ياسلام !!

انهم لن يخضعوا لأوامره !! وسوف يطردون « قائد الأسطول » الاجنبى المولد هذا وهو مدين للملكة حتى بالحذاء الذى يقف فيه ، عائدا الى الأرض التى ولد عليها ·

نظر كريستوفر كولمبس بقلق ـ وهو فى مكتبة لارابيدا ـ فى وجه جارشيا فرنانديز طبيب البلدة الذى قال له : « أى حظ هذا ياصديقى ؟ » وكان قد ظل يسأل نفس هذا السؤال لمدة أسبوع ·

وهز فرنانديز رأسه فى أسى : « ليس فى بالوس رجل واحد سيبحر معك ، يادون كريستوفر ، ولا فى المدن المجاورة مثل مدينتى موجير وهويلفا · لقد بذلت جهدى لأقنعهم · ولكن بحر الظلمات مصدر رعب دائم لهم ·

وأطلق كولمبس صيحة وقال ـ وقد استشاط غضبا : « لقد وقف هؤلاء الأغبياء فى طريقى لسنين طويلة • هل سأتراجع الآن لأجل جماعة من الجبناء ؟ هذا لن يكون! سأجد ثلاث سفن بأية وسيلة. وكذلك سأجد الرجال الذين سيعملون عليها ، حتى لو أدى الأمر الى تفريغ السجون من المجرمين » •

أخذ الأب بيريز عند سماعه هذا وقال متعجبا : « هل تبحر مع جماعة من القتلة وقطاع الطرق ؟ هل أنت مختل العقل ؟ انك سوف تواجـــه مافيه الكفاية من المتاعب ، يادون كريستوفر ، بدون أن تضيف اليها تمرد البحارة » •

وانزعج الأب الطيب انزعاجا شديدا • وكان يذهب كل يوم الى القرية يتجول بين الناس • وكان يلجأ آنا الى هذا ، وطورا الى ذاك ، سعيا وراء رفع روحهم المعنوية واقناعهم بأن رحلة قائد الأسطول مؤكدة النجاح ، وأن حكايات بحر الظلمات ماهى الا قصص عجائز • ولكنه كان يتكلم الى آذان صماء •

وقف فرنندير فجأة قائلا : « لو أن مارتن بنزون كان هنا لكان لكلامه فى المدينة وقع أعظم من وقع كلام أى رجل آخر • وسيستمع النـــاس اليه • بل انى أعتقد أنهم سيصحبونه الى أبواب الجحيم » فأجابه كولمبس فى مرارة : « دعنا نؤمل ألا نبحر الى هذا الحد ، متى تتوقع عودة بنزون من جزر كنارى ؟ »

« واأسفا ! من يستطيع أن يجيبك عن هـــذا ؟ ان موعد عودة سفينته قد فات » •

لم يكن أحد يعرف أية كارثة مستترة قد حلت بصاحب السفينة الثرى • وكان كل يوم يمر يوما ضائعا • وتحقق كولمبس بمرارة أن حل كل مشكلة كان يحدث مشكلة جديدة تحتاج الى حل •

وتطورت مخاوف أهل المدينـــة الى ثورة غاضبة • فوجهت التهديدات لحياة هذا الجنوى « قائد الأسطول » الذى سيقود رجال بالوس الى حتفهم • وأحس الأب بيريز بالانزعاج ، فحث كولمبس على البقاء مختبئا فى لارابيدا حتى تهدأ المشاعر المعادية له • ولكن قائد الأسطول كان يذهب كل يوم وبلا خوف الى المدينـــة للتفتيش بين السفن الراسية فى الميناء ، وليحاول اكتساب ثقة رجال كانوا يولونه ظهورهم عندما يمر بهم •

سرعان ما اكتشف تكتل أصحاب السفن أنفسهم ضده بعناد • والحق أنهم اعترفوا بأن المدينة تعتبر نفسها مطالبة بتحمل الخسائر ولكن من المؤكد أن سفنهم ستفقد فى مثل هذه الرحلة التى لا معنى لها • فمن المسئول اذن ؟ واذا حدث أن شرعوا فى العمل ضد التاج ، فسوف يصيبهم الخراب بسبب القضايا قبل أن يتسلموا من أجرهم مارافيدس واحدا • ولم تكن توجد سفينة واحـــدة صالحة للملاحة بدرجة تسمح لها بالعودة من مثل هـــذه الرحلة التى كان يقترحها ذلك الأجنبى المجنون •

ولم تتوان سلطات الميناء عن العمل مع أصحاب السفن على ابطال مشروع كولمبس • فكان كل رجل يختلق سببا لاخراج سفينته من الميناء يمنح ترخيصا • ويوما بعد يوم بدا الميناء مهجورا أكثر فأكثر • واختفى البحارة الذين كانوا يخشون اجبارهم على الخدمة بطريقـــة غامضة ، ولم تطلب أسرهم معرفة أى شىء عن الأماكن التى توجهوا اليها •

وبدا أنه لا يمكن الحصـــول ولو على سفينة واحدة وبأى ثمن ، أو حشد أى مجموعة من البحارة • واضطر الحاكم ـ خوفا على سلامته الشخصية ـ أن يرسل تقريرا عن هذا الفشل الى الملك فرديناند •

وهكذا مضت أربعة أسابيع فى أشد حالات الثورة توترا • فهل ندم الملك والملكة على حماقتهما وتخليا عن تلك المغامرة الطائشة ؟ سرعان ما اتضح أنهما لم يفعلا ذلك •

اخترق رسول ملكى شوارع بالوس راكبا تصحبه قرعات طبول غاضبة • كان يحمل معه مرسوما موجها الى سلطات كل المدن على طول ساحل الأندلس ينص على أنه : عليهم أن يضعوا أيديهم فورا على السفن المناسبة ، أينما وجدت،وأن يجبروا أصحاب السفن وفرق « أطقم » بحارتها على أن يضعوا أنفسهم تحت امرة قائد الأسطول • وان السجن فى انتظار الرجل الذى يرفض ذلك • علاوة على أنه يجب على سكان القرى أن يدفعوا مصروفات الرسول الملكى اليومية حتى تتم جميع الاستعدادات لرحيل كولمبس •

تأزمت الأمور لدرجة أنه كان من المحتمل أن يحدث أى شىء • فعندما وصلت السفينة بنتا الى الميناء قادمة من جنوا ، وأمر الرسول الملكى بوضع اليد عليها باسم التاج ، تضاعفت التهديدات ضد حياة قائد الأسطول •

ولحسن الحظ وصل فى هذه اللحظة مارتن الونزو بنزون عائدا من جزر كنارى على سفينته نينا ، وكان اسم بنزون محترما ومرهوبا على طول ساحل الأندلس • وكان مارتن وأخواه ـ فنسنت وفرانشسكو ـ معروفين بأنهم شجعان وملاحون خبراء • وعلاوة على ذلك كانوا رجال أعمال دهاة•اذ كانتمعظم أسر المدينة عليها التزامات مالية لأسرة بنزون • فلو أنهم أيدوا مشروع كولمبس بموافقتهم ، لبدا من المؤكد أن أهل بالوس سوف يقتفون أثرهم •

استطاع مارتن الونزو أن يقدر الموقف بنظرة واحدة•هاهى ذى مغامرة توافق هواه • ومهما كان الأمر فليس هناك من يندفع الى

القيام بمشروع مادون أن يقرر أولا مكسبه الخاص ، الا اذا كان أحمق. وعندما اكتشف أن كريستوفر كولمبس قد كوفىء بأسمى الألقاب ـ زيادة على منحة سخية من التاج ـ أسرع الى لارابيدا ووعد بأن كل شيء سوف يكون على مايرام .

وقال ضاحكا : « ياسيدى قائد الأسطول ، ان بين يديك بالفعل المركب بنتا وأراهن بأى مبلغ شئت أن مركبك الثانى سوف يصل الى الميناء مساء غد » .

وأذهلت هذه الكلمات كولمبس فقال : « غدا ؟ » فابتسم الآخر مستمرئا نكتته وقال : « نعم ، فمنذ يومين مررت خارج الميناء بمنافسى القديم ، جوان دى لاكوزا ، سيد السفينة جاليجو التى ستعبر حاجز سالتيز عند حلول المد غدا . فلو أحطنا رجال الملك علما فسوف يمكنهم انتظارهم لوضع اليد عليها . أهنئك أيها الصديق !! ان الجاليجو هذه فى مستوى سفينتك ، وهى جديرة بمواجهة البحر ، وان كانت بطيئة بعض الشيء » .

واليك الطريقة التى تم بها الأمر : فعندما دفعت الرياح الجاليجو فى نهر ريوتنتو ، وضعوا أيديهم عليها باسم التاج قبل أن يحكموا ربط حبالها ، مما أتاح لمارتن الونزو نكتة استمتع بها كثيرا . فأية طريقة قانونية كانت أفضل من هذه لاستبعاد منافسه ، وقد تم هذا باسم الملك ؟

رأى كولمبس أن الجاليجو كانت ذات غاطس عميق لدرجة لا تجعلها صالحة للابحار الى السواحل المجهولة ، حيث يجب أن تكون السفينة ذات قاع مسطح بقدر الامكان ليقوى على ازالة الصخور القريبة من الشاطىء والحواجز الرملية غير المبينة على الخرائط . ولكن

المتسولين لا خيار لهم • وبعد أن غير قائد الأسطول اسم الجاليجو الى سانتا ماريا أعلن أنها أصبحت سفينة القيادة •

لقد أصبح الآن يملك سفينتين متينتين ، ولكن أين الرجال الذين يبحرون بهما ؟ لقد اختفى بحارة كل من السفينتين فى الهواء كما يختفى الضباب أمام الشمس المشرقة • وأقسمت أسرهم بكل القديسين بأن الشيطان وحده هو الذى يعرف ماحدث لهم • وأعلن قائد الأسطول عن أجور تعادل الأجور على السفن الحربية ، مع دفع أجر أربعة شهور سلفا ، لكى يغرى الرجال بالعودة • ووعد بأن التاج سيعفو عن كل التهم المدنية والجنائية الموجهة ضد كل من استجاب لدعوة الملك • ولكن لم يظهر رجل واحد ردا على هذا •

وصرخ مارتون بنزون قائلا : « سوف يظهرون ؛ لقد تكشف لى أن الرجال الذين يدينون لى بشىء يفعلون ما أطلبه منهم • ولكن ـ أيها الصديق ـ هل فكرت فى أمر سفينتك الثالثة ؟ أين يمكن أن توجد ؟ »

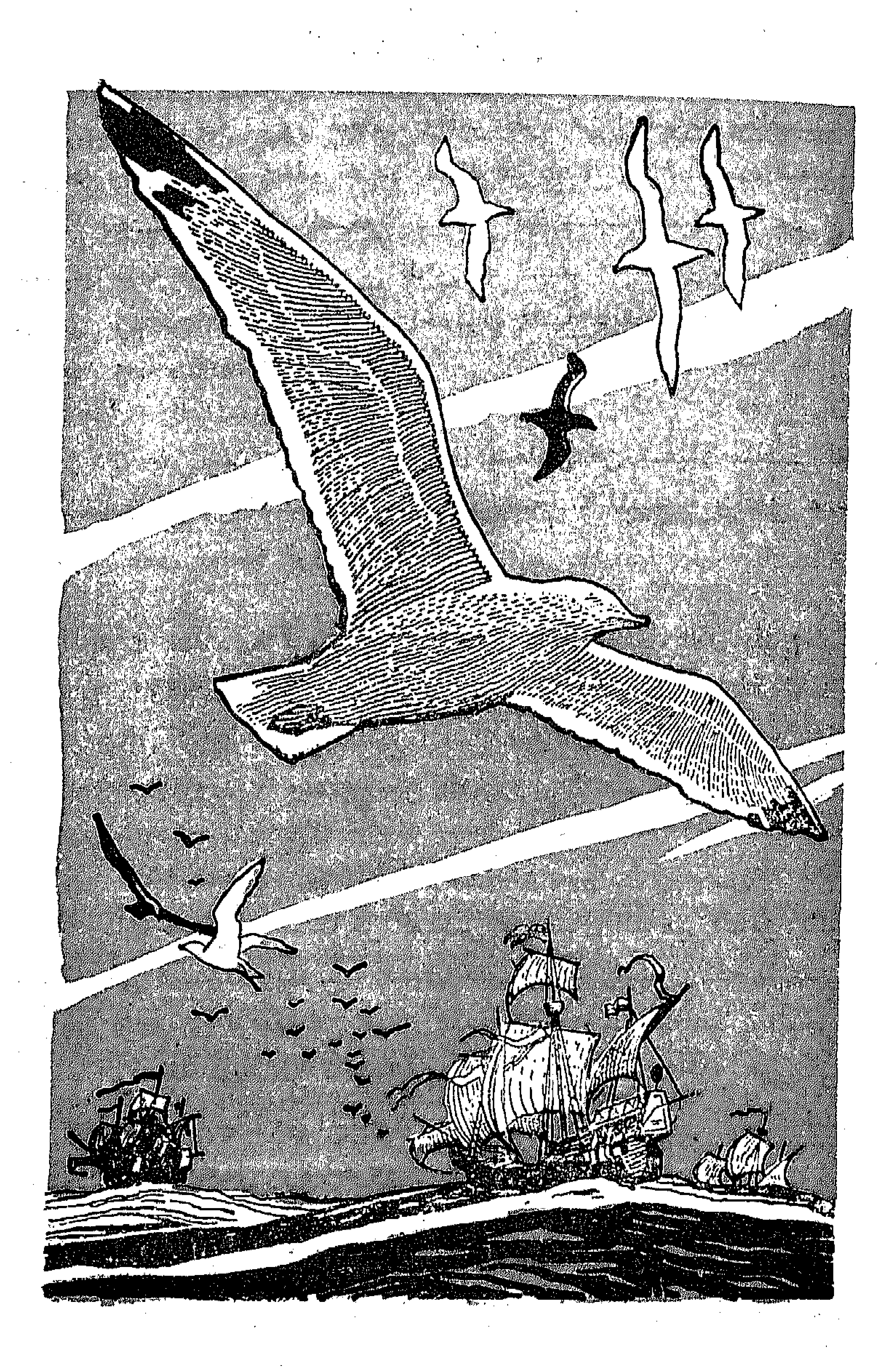
قال قائد الأسطول : « لقد أخبرونى أنه يمكن أن أعرض ألفى كرون (١) ثمنا لسفينة ثالثة • ولكن المرفأ خال • لا أدرى أين أتجه • قد يصبح من الضرورى أن أبحر بسفينتين فقط » •

وبدا أن بنزون يولى الأمر تفكيرا عميقا ، وزم شفتيه وقلب يديه وقال وهو مستغرق فى التأمل : « ان من الجنون أن تفكر فى الابحار بأقل من ثلاث سفن • فلو أن كارثة حلت بواحدة ، فان الأخرى ستعتمد على نفسها وستضطر الى أن تحمل بحارة السفينتين » •

---

(١) كرون : عملة تساوى خمسة شلنات انجليزية •

(المترجم)



وأشرق وجه بنزون فجأة ، وافتر ثغره عن ابتسامة مخلصة صريحة وضرب بيده فخذه بشدة • « لقد عثرت عليها !! أنسب سفينة لك !! انهـا سفينتى الصغيرة نينا ــ انها سفينة لطيفة • نعم ان حمولتها مائة طن فقط،ولكن لن تلحق بها السفينة بنتا أو سانتا ماريا فى أى يوم من الأيام • يمكنك الحصول عليها بألفى كرون ياسيدى القائد ، انها صفقة !! »

كان مما يتفق ودهاء بنزون أن يتخلص من سفينة منافس له تحت ستار أمر من الملك ، وذلك ليحجز سفينته للبيع • وبمثل هذه الوسائل حقق لنفسه ثروة ومكانة •

بقيت عمليـة ترميم السفن الثلاث التى تقف الآن طوع أمر كولمبس • ولكن سرعان ما واجـه عقبة جـديدة ، فقد لجأ العمال المكتئبون الى كل الوسائل لتأخير العمل • وكان يشجعهم على هـذا الأصدقاء والأقارب • وأصبح من الضرورى الاحتياط دائما ضـد مكايدهم •

وذات صباح ــ عندما مر كولمبس على عمال الترميم الذين كانوا يعملون فى السفينة بنتا ــ اكتشف أنهم كانوا يثبتون دفة السفينة بطريقة تؤدى الى توقفها عن العمل عندما تمخر السفينة عباب البحر • وبهذه الوسيلة سيضطر قائد الأسطول الى اعادة بنتا قبل أن تكون قد أبحرت عدة أميال من الميناء الأصلى • وغضب كولمبس لهذه المكيدة وأمر بأن يعاد العمل مرة أخرى •

تظاهر الرجال بأطاعته ، وعندما ولاهم قائد الأسطول ظهره ، جروا مجتمعين واختبأوا فى الجبال • أين كان يمكن الحصول على عمال آخرين ليحلوا محلهم ؟

وعندما كان يعود كولمبس الى لارابيدا فى أغلب الأمسيات ، كان يجد نفسه مثقلا بعبء من المسئولية • كان يجعل صديقه الأب بيريز يحس أنه من الصعب أن يواسيه • وفى مثل هـــذه اللحظات كان يلاحظ فى أسى أن سفنه الثلاث لا تقوى على مواجهة الأخطار التى تنتظرها •

ولنفرض أن حساباته ثبت خطؤها ؟ وكان قد صمم على أن يحمل معه مؤنا تكفى ستة أشهر ، ولكن اذا لم يصل الى مملكة الخان الأكبر فى نهاية هذه المدة • ماذا يحدث عندئذ ؟ سيموت هو ورجاله جوعا وعطشا ؟ وعندئذ تضايق كولمبس من نفسه ونحى هذه الشكوك جانبا •

عاد اليـــه مرحه فى الصباح ، عندما أعلن مارتن الونزو ، مع أخويه فنسنت وفرانشسكو • انهم ، هم أيضا ، سوف ينضمون للبعثة • وسوف يقود مارتن السفينة نينا مع فرانشسكو كمرشد لها. وسيرأس فنسنت السفينة بنتا • أما كولمبس نفســـه فسوف يقود بطبيعة الحال ـ سانتاماريا ـ سفينة قائد الأسطول ، ولم تكن هناك الخطة التى يمكن أن تسر قائد الأسطول أكثر من هذه الخطة •

وبحلول الليل وصلت الأخبار الى الجبال حيث كان يختبىء الرجال وكان لقرار الاخوة بنزون تأثير أكبر من كل العقوبات التى هدد بها التاج ؛ اذ انساق البحارة واحدا واحدا عائدين الى المدينة ومازال بهم خوف لأنهم كانوا يعلمون أنه لا فائدة من التمادى فى المقاومة ؛ اذ لم يقاوم أى رجل عاقل أسرة بنزون طويلا •

وفى خلال أسبوع حشد نيف ومائة بحار • وكان سيبحر ستون منهم مع سانتا ماريا ، وثلاثون مع السفينة بنتا ، والباقون مع نينا • وأمكن توفير مرشدين مهرة لكل سفينة • ومما ابتهج له كولمبس أن

صديقه الطبيب ، جراشيا فرنانديز كان سيبحر معه ، ولم يكن غريبا بين كل المسافرين على السفن سوى قائد الأسطول ، اذ كان أجنبيا ٠ وضمت هيئة العاملين على السفن أيضا، مترجما اسمه لويس دى توريز الذى كان يعرف اللغات اليونانية والعربية والعبرية والاسبانية والبرتغالية والايطالية ٠ وكان يظن أن مساعدته سوف تكون عديمة القيمة فى جزر الهند !! وكان هناك أيضا خبير بفحص المعادن الثمينة، ونجار ، وصانع براميل ، وحداد ٠ وحملت على ظهور السفن براميل مليئة بالسلع التجارية منها : الخرز ، وأجراس صغيرة ، وكثير من الأقراط والخواتم والأساور الصغيرة ٠ وكذلك طعام ، وأشرعة وسوار احتياطية ، وأسلحة نارية وذخيرة ٠ وحملت سانتاماريا مدفعا ثقيلا يسمى « اللومباردى » (١) ، وبنادق أخف من هذا معروفة باسم « الصقور الصغيرة » ٠ وقامت مقذوفاتهم من الحجر والحديد بمهمة أثقال السفينة ٠

رسا الأسطول الصغير فى اليوم الثانى من أغسطس فى نهر ريو تنتو ، على استعداد للرحيل ٠ وفى مساء ذلك اليوم دلف قائد السفينة وضباطه مع الرجال العاملين فى مقدم السفينة ، الى أعلى الجبل متجهين الى دير لارابيدا ٠ وهناك لفت الأب بيريز أنظارهم بوقار الى أهمية العمل العظيم الذى ينتظرهم كرواد للمسيحية فى العالم الجديد ٠ ثم باركهم جميعا ، وحنى الكثيرون منهم رءوسهم فى ضيق ، لأنه خيل اليهم كما لو كان هذا الاحتفال الدينى ان هو الا اعداد لرحلتهم الأخيرة من هذا العالم الى الحياة الأخرى ٠

عاد الرجال ، مستغرقين فى التفكير ، الى سفنهم عبر شوارع مرصوفة بالحجارة حيث كان النساء والأطفال يبكون فى حزن ٠

---

(١) نسبة الى لمبارديا فى ايطاليا ٠

(المترجم)

وتوجهت النظرات الحزينة المتهمة الى قائد أسطول المحيطات وهو يسير عبر هذا الحشد الباكى • وأشارت أكثر من امرأة بأصابعها بما يشبه قرون الحيوان ، كما يفعل من يريد أن يطرد العين الشريرة ، وهن يبكين رجالهن الذين اعتبروهن فى حكم المفقودين •

ووصلت حركة البحر الى الجزر • وحلت الساعة المرعبة • وشدت السفن مراسيها • ونقل كولمبس وضباطه بالقوارب الى سفنهم كل الى سفينته • ثم تبعهم البحارة •

وكانت الشمس قد أشرقت لتوها خلف قمة جبل لارابيدا عندما اعتلى قائد الأسطول أعلى مؤخر السفينة سانتا ماريا • وتحته قارع الطبول يبعث بدقاته الذهبية وسط السفن • وصاح كولمبس مع هذا الصوت مصدرا أول أوامره :

« ارفعوا المرساة !! انشروا القلاع جميعا !! » • وتردد صوت صفارة رئيس النوتية فى حدة • وقرقعت عجلة نشر الأشرعة • وشقت المرساة الماء ، اذ رفعت الى ظهر السفينة ، مع تعالى أصوات المنشدين • وصرصرت الحبال وهى تطوى على البكرات • واهتزت سانتا ماريا لحظة عندما مسها المد بأصابع شرهة •• وانتشرت القلاع واحدا واحدا ، منقوشا عليها صليب جزيرة مالطة يبرق فى ضوء الشمس المشرقة • وفى قمة أطول سارية رفرفت أعلام كاستيل وأراجون • وخفقت راية قائد الأسطول المثلثة الشكل على صارى مؤخرة السفينة • وتتابع صدى الأوامر من السفن الأخرى •

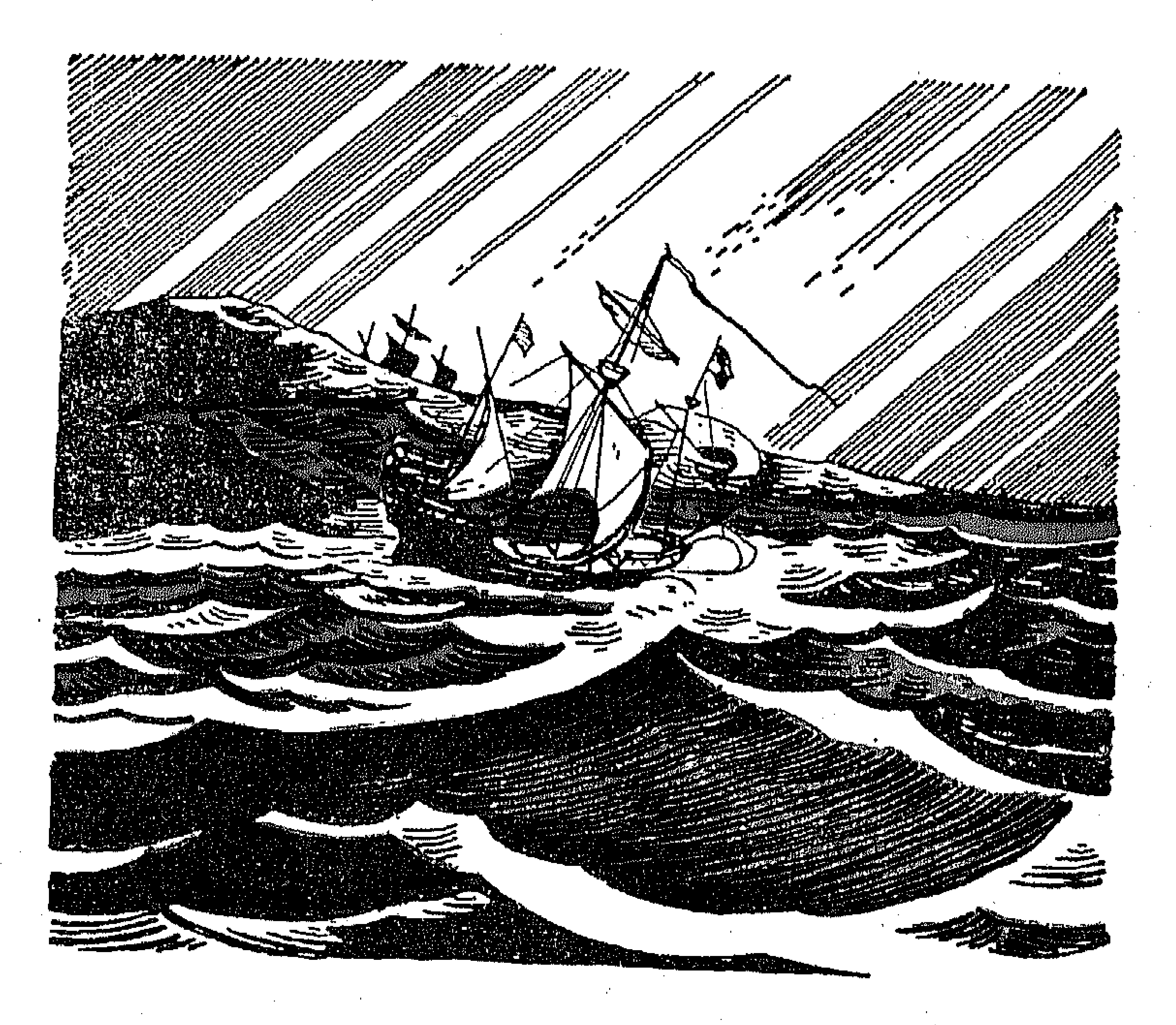
حاذت سفينة قائد الأسطول لارابيدا ، وفى أثرها السفينة بنتا والسفينة نينا تمخر الماء • والتفت كولمبس خلفه تجاه الأرض • فشاهد حوائط الدير البيضاء المنخفضة ، وأشباح الرهبان واقفين

مكتوفى الأيدى • ورأى ، أيضا ، الأب بيريز الكهل واقفا منتصبا كالسيف المسلول • ثم رأى شبحا أصفر يعزل نفسه عن الآخرين ويجرى بحذاء مقدمة الجبل موازيا مجرى السفينة • فانقبض قلب كولمبس • انه دييجو ابنه ••• وجاءه صوت ابنه الفتى رغم عويل الريح وأصوات طيور البحر : « أبى ، أبى ••• مع السلامة ••• مع السلامة » • وانخفضت راية قائد الأسطول المثلثة الشكل للتحية •

ســـــارت سانتا ماريا فى يسر ، استجابة للأوامر • واتجهت بمقدمها الى عرض البحر وهى تعبر تيارات حاجز سالتيز الجارفة ، فى طريقها الى مصير أشبه بمصير الخالدين •

الفصل السابع

بحر الظلمات



تسابقت السفن الثلاث وسط الأمواج المتلاطمة ، وقد نشرت القلاع جميعا وراحت تمتد فى الهـــواء فى رشاقة • ووضعت الخطة للاتجاه الى جزيرة كنارى الكبرى • ومن هناك يتجه الأسطول الصغير غربا ، مبحرا فى بحر الظلمات حتى يرسو على بر فى النهاية ، ان شاء الله •

وبدأ كولمبس منذ الساعة الأولى ، وسط الهدوء الذى ساد مقصورته ، فى تسجيل سرعة سير السفينة سانتا ماريا • فما ينبغى اغفال تسجيل أى تفصيلة بحجة عدم أهميتها • فكل شىء يجب أن يجد طريقه الى يوميته : الرياح ، والطيور ، والتيارات ، والأسماك ، والسحب ، والمسافة المقطوعة كل يوم مع اختلاف أوضاع الأشرعة ، وذلك لمصلحة أصحاب الجلالة ، ولمجده الشخصى •

ولأول مرة يبدو لقب « قائد أسطول المحيطات » أكثر من لقب أجوف المعنى • فهاهىذى أخيرا قد واتته الفرصة لاثبات أنه بالخيال والشجاعة ، بالمهارة والجرأة ، سوف تكشف لأعين الناس منطقة مجهولة من الكرة الأرضية • ياله من شعور بالسعادة ذلك الذى تملك كولمبس عندما وقف على سطح مؤخر السفينة يدير عجلة قيادة سفينته تحت تأثير احساسه بالرياح التى تلامس خديه ! ما أجمل أن يخلف الأرض وراءه !!

ولكن مزاج البحارة غير المستقر طغى حتى على نشوة اللحظة الراهنة ، فقد انتزعوا من أرض الوطن انتزاعا تحت تأثير التهديد بالعقاب من التاج ، من ناحية ، واستياء أسرة بنزون من ناحية أخرى ؛ فلو أنهم فى ساعة يأس ، تجمعوا وأصروا على العودة ، فماذا يحدث لهذا المشروع العظيم ؟ لقد كان الخوف من المجهول شائعا بين الجميع •

وعندما اتجه مقدم سفينتهم الى الغرب من فيرو ـ وهى أبعد جزيرة من جزر كنارى ـ فانهم سوف لا يتركون سواحل اسبانيا وأفريقيا المألوفة لديهم فحسب ، بل انهم سيتركون كل ما سمعوا عنه طوال حياتهم أنه أقصى أطراف العالم • واذا كان حكماء سلامنكا قد رفضوا تصديق رؤيا قائد الأسطول ، فهل كان غريبا أن يساور الملاحين الجهلة نفس الشعور ؟

وكان مما دعم مخاوف المؤمنين بالخرافات أن يتذكروا أنهم قد أبحروا من بالوس فى يوم جمعة ـ الذى كان يعتقد الكثيرون أنه يوم يجلب سوء الحظ ٠

وربما كان هذا هو السبب ، فى أنهم بعد ثلاثة أيام ، شاهدوا علامة على سوء حظ فى طريقه اليهم عندما أبلغت سفينة مارتن بنزون اشارة بأن دفتها قد كسرت ٠ وتولت السفينة بنتا القيادة بالضغط الهائل على شراعها ٠ فتراجعت الى الخلف بسرعة ٠ وكانت تهب عاصفة معتدلة فلم يستطع قائد الأسطول أن يسارع لنجدة بنزون ٠ ولكن استطاع مارتن الونزو بمهارته أن يواجه الطوارىء ٠ بأن قصر الشراع وأوجد وسيلة لتدعيم الدفة ، مما مكن سفينته من أن تقطع المسافة الباقية الى جزيرة كنارى الكبرى مترنحة ، حيث يمكن عمل اصلاحات شاملة ٠ وعندما تذكر كولمبس يوم أن مر فى « ترسانة » السفن بالعمال المتجهمين ، تأكد من أن الدفة المكسورة ان هى الا جزء من خطة تستهدف ارغامه على العودة الى اسبانيا ٠ فاستشاط غضبا ٠ لأنه ستضيع أيام غالية فى اعادة اصلاح السفينة بنتا ٠

واستفاد قائد الأسطول بعض الشىء من هذا التأخير ، على أى حال ، لأنه كان مصمما على تغيير أشرعة السفينة نينا المثلثة الشكل ، بغيرها مربعة الشكل ٠ فمنذ البداية نظر الى النوع الأول بعين الشك، لأنه كان يعرف أن السفينة ذات الشراع المثلث الشكل لا يتيسر لها تغيير اتجاهها بسرعة فى أثناء ابحارها ٠

استغرقت هذه العمليات ثلاثة أسابيع ٠ ولم يتم اعداد كل شىء الا فى اليوم السادس من سبتمبر ٠ ولكن هددت كارثة جديدة الأسطول الصغير ٠ فقد أبلغت احدى السفن التى وصلت من جزيرة فيرو أن ثلاث سفن حربية برتغالية تجوب تلك المنطقة بقصد القبض على كولمبس أو أسطوله ٠

كان الخطر داهما ولم يتصـــور قائد الأسطول أنه سيقوى على الدفاع عن نفسه ضد هذا الهجوم ، ويجب الابحار فورا اذا ما أراد أن يفلت من كلاب حراسة ملك البرتغال • فأصدر أوامره العاجلة فى هذا الشأن •

وعنـــد مغيب الشمس هربت بنتا ونينا فى اثر سفينة قائد الأسطول ، وقد غيرت اتجاهها مع هبة ريح عاتية • وعندما مروا تحت قمة جبل تناريف المقوتة كان من الممكن رؤية البركان فى حالة ثورة كاملة • ولم يكن البحارة قد شاهدوا مطلقا مثل هذا المنظر • فقد هاجت أعمدة من الدخان ضاربة فى عنان السماء يتخللها اللهب المندلع وتدفقت أنهار من الحمم على منحدرات الجبال • ولمعت على صـــفحة السماء أضواء البرق المتشعبة • واقتنع الرجال ، وقد هالهم الأمر ، أنهم قد تذوقوا طعم المستقبل وهم على عتبة بحر الظلمات • وأرغمت قوة الرياح السفن الثلاث على الاقتراب من سواحل جزيرة فيرو فى نفس البقعة التى أبلغ عن سفن الحرب البرتغالية أنها تجوب بالقرب منها • وخيل الى كولمبس أنه قد وقع رأسا فى فم الذئب •

ولكن فجأة حولت الرياح مؤخر السفينة الساكنة وازدادت سرعة الريح الى عاصفة سرعتها ١٢ عقدة (١) فى الساعة • واختفت عن الأنظار بسرعة جزيرة فيرو الصغيرة ، وهى آخر نقطة فى العالم المعروف • لقد أفلت كولمبس من العدو •

اجتاح الرعب السفن الثلاث باختفاء الأرض • وتلاقت السماء الخاوية بالبحر الخاوى فى خط الأفق اللانهائى • وكانت السفن الثلاث هى المركز المتحرك لدائرة من الماء لانهائية،ضالة مهجورة • وكنت ترى

---

(١) العقدة : مقياس للمسافة فى البحر تعادل حوالى ٦ آلاف قدم •
(المترجم)

حتى أكثر الملاحين صلابة ، الذين واجهوا العواصف والموت مرات متعددة ، يبكون · أين وكيف سوف يلاقون حتفهم ؟ وأى وحوش مرعبة سوف تخرج من البحر لتبيدهم ؟

سبمع كولمبس وهو يدون ملاحظاته فى دفتر يومياته ــ والهدوء يسود مقصورته ــ بكاء رجاله فاضطرب قلبه ·

ولذلك لم يكن ليدهش عندما قال له الفريدو ، رئيس الملاحين « هناك شغب فى أعلى ظهر السفينة أمام الشراع الرئيسى ياسيدى القائد · يود الرجال محادثتك » فسأله كولمبس : « أهو اضطراب حادث فعلا ؟ »

« أخشى ذلك ياسيدى القائد » ·

أسرع كولمبس عارى الرأس والريح تداعب شعره الذى وخطه المشيب ، الى سور مؤخر السفينة حيث كانت تؤدى بضع درجات الى وسط السفينة · وفى أسفل ، احتشدت مجموعة من الرجال اتجهت وجوههم الصلبة الى أعلى · وصدرت عنهم همهمة احتجاج بدت للسامع أنها تهديد ·

رفع قائد الأسطول يده يطلب الصمت ، ولكن تحداه صوت مجلجل قائلا : « الى أين تقودنا ، يارجل جنوا أخبرنا عن هذا ! »

وحملق كولمبس فى المتكلم وأجاب : « ياغبى ! انى أنهض بكم من الفقر الى الثروة · ومن البؤس الى المجد » ·

وأجاب الصوت محتدا : « المجد ؟ ولماذا نخاطر بحياتنا فى مقامرة مجنونة ؟ »

فصاح كولمبس قائلا : « ألا تعنى حياتى شيئا بالنسبة الى ، حتى أخاطر بها كذلك ؟ انك تسميها مقامرة ! وماذا تساوى حياتكم اذا قيست بفرصة اليسر والرخاء والشرف والشهرة ؟ انى أعرف ما أنا فاعل • هل تظنون أن صاحبى الجلالة قد استأمنانى على هذه السفن اذا لم أكن قد أقنعتهما بهذه الحقيقة ؟ »

« ولكن الى أين تقودنا ؟ »

وأجاب قائد الأسطول فى حزم : « على بعد سبعمائة فرسخ الى الغرب تقع جزيرة سيبانجو • هناك تجدون المنازل ذاتها مسقوفة بالذهب • وسوف تعودون الى اسبانيا لتصبحوا موضع الحسد الشديد من الناس • وسوف لا يعرف أطفالكم أبدا جهد العمل الشاق ، أو مشقة الجوع • فلتثقوا بى ! انطلقوا الى أعمالكم أيها الرجال • لقد رضى الله عنا • وسوف يقودنا سالمين الى ميناء وطننا ـ ليمجدونا ويكافئونا » •

لقد كانت نبرة صوته وطريقته آمرة ، وكذلك كانت كلماته مقنعة لدرجة أنه انطلقت صيحة تحية من نفس الحناجر التى ضجت منذ لحظة مضت بالتهديدات وذلك بمجرد انتهاء حديثه •

ولكن كولمبس لم يخدع ، اذ كان يعرف أن سانتاماريا تشبه ترسانة حربية عائمة تحتاج الى شرارة فحسب حتى تنفجر • وأصدر أوامره الى قواد السفينتين الأخريين بأنه ، فى حالة اضطرارهما للانفصال بعضهما عن بعض ، عليهما أن تستمرا فى اتجاه الغرب لمسافة سبعمائة فرسخ ، حيث يمكنهما أن تتوقعا عند هذه النقطة أن تريا أرضا •

ومع ذلك يجب أن يحسب حساب احتمال الوقوع فى الخطأ ؛ غير أنه بعد أن حدد كولمبس موقع سيبانجو بصورة قاطعة ، لم يعد

فى وسعه أن يقع فى الخطأ • ولذلك لجأ الى حيلة صغيرة قد تخفف من مخاوف رجاله • فأوضح فى دفتر يومياته السرى المسافة الصحيحة التى قطعها كل يوم ، ولكن فى السجل العام ، المعرض لفحص الجميع، خفض المسافة الحقيقية عدة أميال •

وبالنسبة للأدوات ، كانت سانتا ماريا تحمل بوصلة واسطرلابا (١) كان يمكن تحديد خط العرض به • ولكن قائد الأسطول كان يمكنه تخمين خط الطول فحسب ، وكان يقيس الوقت بساعة رملية • ولأن القياس الدقيق كان مستحيلا ، كان الاخوة بنزون لا يستطيعون مناقشة حساباته حتى لو شكوا فى أنه كان يستغفلهم •

ولم تكد هذه الحيلة تنجح حتى ظهرت مشكلة أكثر ازعاجا • فبعد حوالى مائتى فرسخ فى البحر ، اكتشف كولمبس أن الابرة المغناطيسية فى البوصلة ، التى كانت تشير الى النجم الشمالى (٢) دائما ، قد أظهرت انحرافا لدرجات كثيرة • ولم يكن قد سمع عن مثل هذا الأمر من قبل • وكتب الرجل المهموم وهو جالس فى مقصورته يتأمل دفتر يومياته مايلى :

« أمس ، فى المساء ، انحرفت ابر البوصلات ربعا كاملا الى الشمال الغربى • وفى هذا الصباح مازالت عند مكانها مبتعدة » •

« لقد راجعت ملاحظاتى مرة بعد مرة ـ والنتيجة هى نفسها • فما هو السبب ؟ وكيف سأخفى هذه الحقيقة المزعجة عن الرجال ؟ »

---

(١) آلة فلكية قديمة تطورت على أيدى العرب • (المترجم)

(٢) النجم القطبى الذى يشير اليه محور الارض • (المترجم)

من المؤكد أن مارتن بنزون على السفينة بنتا وفنست على نينا ، قد لاحظا نفس هذا الانحراف ! هل سيكون لديهما اللباقة الكافية لاخفاء هذا الأمر ؟ واذا أمكن الشك فى الابرة المغناطيسية ، واذا كانت النجوم نفسها قد بدأت تتذبذب ، فماذا بقى يمكن الاعتماد عليه فى هذه البيداء اللانهائية من الماء ؟ وتذكر كولمبس فى هذه اللحظة قصصا يرويها الملاحون الكهول • قصص جبال مغناطيسية تجذب كل قطعة من الحديد فى السفن فتتناثر أجزاؤها • هل تكمن هذه الكارثة له فى الغيب ؟

بقى لرئيس الملاحين ، الفريدو ، أن يكتشف انحراف الابرة وأن ينقل الأنباء السيئة للبحارة •

ها قد توافر دليل ، اذا كانت ثمة حاجة لمثل هذا الدليل ، على أنهم قد أبحروا فيما وراء حدود العالم (الطبيعى) المألوف لديهم • حقا لقد قضى عليهم الآن ؟

وصاح الفريدو مشيرا الى البوصلة : « انظر بنفسك ، ياسيدى القائد ، هل علينا أن نبحر الى الأبد فى هذا البحر وقد فقدت الابرة قدرتها على أن ترشدنا الى طريق الوطن ؟ »

ورددت السؤال عشرات الأصوات الغاضبة من وسط السفينة • وعمل عقل كولمبس بسرعة لمواجهة هذا الأمر الطارىء • وكان لابد له من أن يرضى الرجال بأية كيفية بشرح هذا الأمر الغريب الذى لم يفهمه هو نفسه ، لأن أية اجابة كانت أفضل من لا شىء • وحملق فى البوصلة ، مفكرا •

وفجأة ألقى برأسه الى الوراء وانفجر ضاحكا • وتفرس الرجال فيه وكأنه قد أصبح مخبولا •

وصاح قائلا : « أنت ياالفريدو ، انكم جميعا مغفلون لا دراية لكم بعملكم • أى نوع من البحارة تظنون أنفسكم ؟ لماذا تعدون الابرة مخطئة لأنها لم تعد تشير الى نجم الشمال ؟ »

وتثاءب رئيس « النوتية » بغباء وقال : « ولم لا ياسيدى القائد؟ ان الابر تشير دائما الى الشمال وذلك حتى الآن » •

وضج كولمبس مرة أخرى بالضحك وكأنه يستمتع بنكتة رائعة: « أيها الأغبياء الجهلة !! ياله من فريق « طاقم » بحارة لقائد أسطول المحيطات !! ان الخلل ليس فى الابرة ، أيها البله ؟ »

« عندئذ ، ما الأمر » •

« ان النجم نفسه يتحرك • هاهوذا جوابكم » •
« ولكن » •

وقال الآخر مقاطعا : « لاحظ كيف يشق النجم طريقه عبر السماء فى حين تبقى الابرة ثابتة على نقطة فى الشمال لا تراها العين • فكيف تستطيع البوصلة أن ترشدنا اذا ما تحركت هى أيضا مع النجم ؟ كفى ارتعادا من الخوف ! هل يجب أن تكونوا جبناء كما أنتم أغبياء ؟ »

وصمت الرجال برهة عندما تأملوا ذلك القول المدهش • واستغل قائد الأسطول فرصة اضطرابهم وأمرهم بالعودة الى أعمالهم.

ولكن الفريدو ، وهو أكثر ذكاء من أقرانه ، تلعثم قائلا : « انى لم أشهد مثل هذا طوال حياتى فى البحر » •

وقال كولمبس ساخرا : « طوال حياتك فى البحر ؟ لقد كنت رضيعا كثير الشكوى حين كنت أنا قد عبرت البحر المتوسط عشرين مرة • راقب الطريق الآن وكفى كلاما فارغا » •

« أجل ، ياسيدى القائد » •

وبعـــد بضـــعة أيام ، انتعشت الآمال بظهور خطاف بحـر وأبى فصادة ، وقد حلقا فوق السفينة لبعض الوقت • وكان يظن أن طيورا من هذا النوع لا تطير أبدا بعيدا عن الأرض • ولكن بحلول الليل ، عندما اختفت الطيور أصاب منظر غير متوقع جميع البحارة بالذعر ؛ فقد كان البحر هادئا ، والهواء ساكنا ، والســـماء تتلألأ نجومها ، عندما شقت عنان السماء شعلة من النار واختفت فى البحر • وبدا أنها من القرب بحيث ظن الرجال أنهم سمعوها تئز عبر الفضاء • واستمر وهجها الوضاء بضع ثوان • وألقى المنظر الغريب بالرهبة فى عقول معدة لأن تنزعج لأى حدث غير عادى • ان الأجرام السماوية تغوص فى البحر !

لم تلاحظ أول قطع من أعشاب البحر الا بعد ذلك بوقت قصير، ممتدة على مدى البصر • حيث اكتشف وجود (كابوريا) على احدى هذه القطع ، وأصر بعض الرجال على أن الأرض لا يمكن أن تكون بعيدة •

وأدركت السفن الثلاث الرياح التجارية : وهى رياح ملائمة تتبع مجرى الشمس ، تهب بانتظام من الشرق الى الغرب • وسوف لا يلزم تغيير الاتجاه لبضعة أيام قادمة • ولكن حتى هـــذه الرياح المسالمة أصبحت مصدر ازعاج ، لأنها تهب دائما من نفس الاتجاه ، بعيدا عن الوطن • فكيف ستقوى أية سفينة على الابحار ضد مثل هذه الريح ؟ انها ستواصل سيرها دائما الى الأبد،حتى يهلك رجالها جوعا وتتناثر عظامها •

وبدا أن الشمس كلما أشرقت من جديد تزداد حرارة عن اليوم السابق • وأصبح سطح المحيط كالقرص الملتهب • وبدأ التهامس بأن مخازن السفينة كانت آخذة فى التناقص ، وأن الفئران قد أخذت

تهجر جوف السفينة · وأخذ السوس ينخر الخبز ، وأصبح النبيذ حامضـــا ، وأسن الماء فى البراميل · وشد الرجال مناطقهم وألقوا بنظراتهم المتجهمة الى مقدم السفينة حيث كان يقف كولمبس ·

سادت نفس الروح على ظهر السفينة بنتا · وكان مارتن بنزون رجلا ذا ارادة حديدة قليل الميل الى الوقوف فى الصف مع رفقائه · ولما كان مشوقا كقائد الأسطول لأن يقوم باكتشافات لحسابه الشخصى فلم يستطع أن ينسى أن الملكة ايزابللا قد قدمت معاشا سنويا قدره ١٠ آلاف مارافيدس لأول رجل يرى الأرض · ولم يكن مارتن الونزو راغبا فى أن يسمح لهذه الجائزة أن تفلت من بين أصابعه ·

فى صباح اليوم الثامن عشر من سبتمبر بعث بنزون باشارة الى سانتا ماريا أنه قد رأى سربا كبيرا من الطيور يتجه غربا ، واقترح أن يتبعه بأقصى سرعة · فالأرض لا يمكن أن تكون بعيـــدة · وسمح كولمبس لبنزون رغما عنه أن يسير فى طريقه،لأنه تذكر أن البرتغاليين قد اكتشفوا معظم جزائرهم باتباع الطيور فى طيرانها · ان كل قسم من أسطوله الصغير شىء له أهميته · ولم يكن أحد يعرف ما ينتظره وقد تحطم كثير من السفن بين الأمواج الكبيرة على ساحل مجهول · وأسرعت بنتا ، تتجه غربا ، وثبت القائد نظره عليها بقلق ·

ولكن بحلول المساء عادت مرة أخرى الى مكانها المعتاد · لم ير مارتن الونزو شيئا أكثر اثارة من المرج الأخضر الطافى لمسافة أميال لا حصر لها ·

أما من ناحية كولمبس فكان عليه أن يراقب مراقبة مستمرة ، ان مدير الدفة فى كل سفينة لا يسمح أبدا لمجرى السفينة أن يختل · وكان ينام نوما متقطعا ، ولكن بدا أنه لا يحتاج كثيرا الى النوم · وكان يكاد لا يعرف ما أكله أو ما يهتم به · وكان من حين الى حين

يتبادل الحديث عبر الماء مع مارتن أو فنسنت بنزون ، وفيما عدا ذلك فقد بقى صامتا ووحيدا ٠

كان كل يوم جديد يحمل معه دليلا جديدا على وجود أرض فى عرض المحيط وكان البجع يطير محلقا حول السفينة ، وحدث ذات مرة أن أمسك خطاف البحر باليد ٠

أصبحت مساحات أعشاب البحر كثيفة كالمستنقع ٠ وكانت السفن تشق طريقها فيها بصعوبة ٠ وكان الرجال قد سمعوا عن سفن أطبق عليها الجليد واحتجزها ، ولكنهم لم يسمعوا عن شيء كهذا الذى رأوه ! فهل كان عليهم أن يزحفوا على الأرض مئات الفراسخ بعيدا عن كل معونة ؟ وكانوا يسبرون غور الماء ، ولكن على بعد مائتى قامة (١) لم يوجد قاع للمحيط ٠

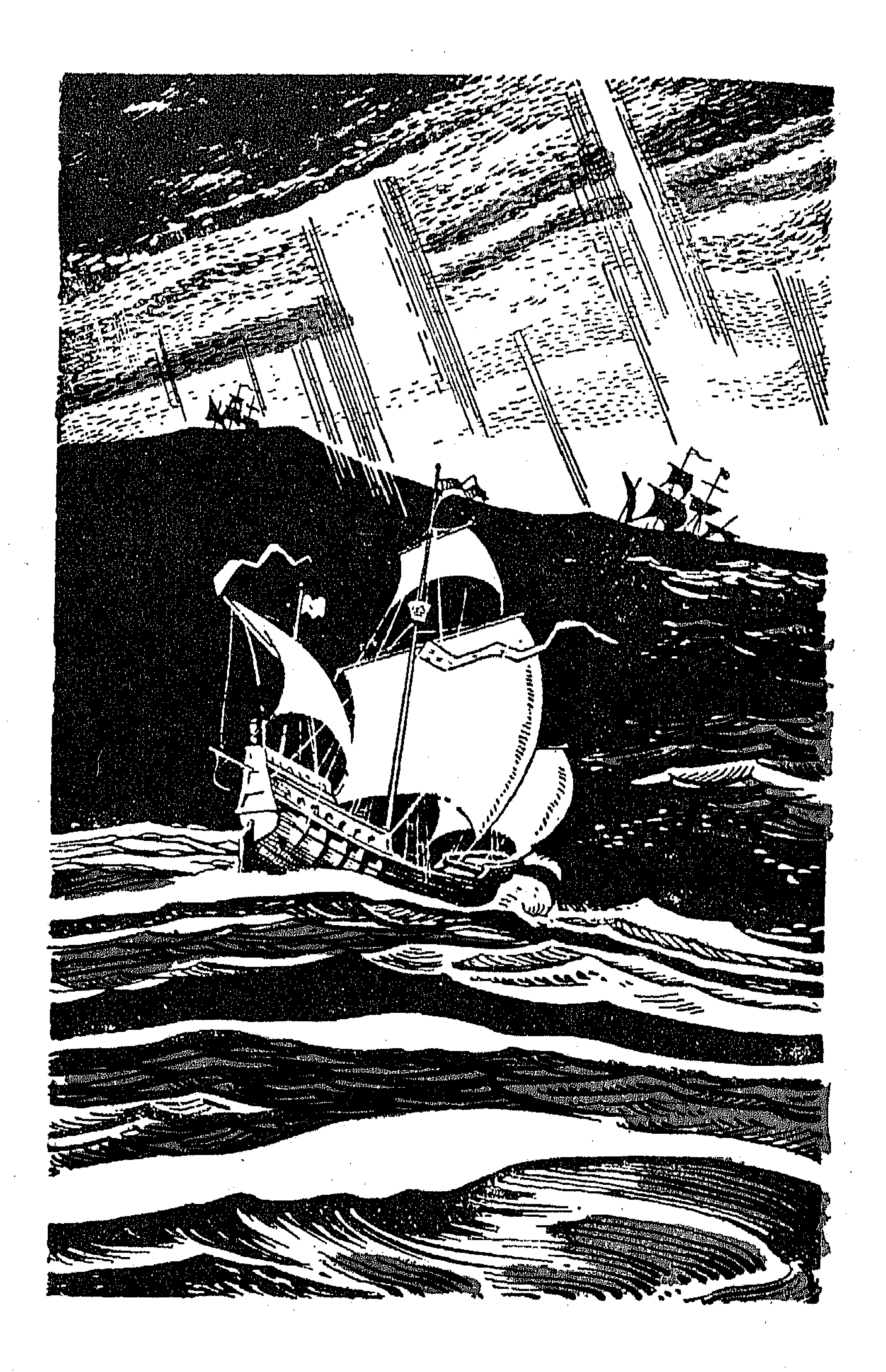
وعندما كان رجال مقـــدم السفينة يتقلبون من شدة الحر على أسرتهم الصغيرة ، فى الليل ، وقد خيم عليهم سكون مقبض والموجات الصغيرة تحدث صوتا وكأنها فئران تقرض أرض السفينة الخشبية ، مس الخوف بأصابع لزجة قلب رجل بعد آخر ٠ فرسموا علامة الصليب على وجوههم وأخفوا رءوسهم وهمهموا بتهديداتهم لقائد الأسطول الأجنبى الأصـــل الذى كانت رعونته المجنونة تقودهم الى الدمار ٠ واختلطت أصواتهم محدثة جلبة غاضـــبة : « أين هى الآن الأرض الموعودة ؟ أين هى جبال الذهب ؟ اننا سنهلك جميعا فى هذا المستنقع العفن ! »

« لقـــد أبحرنا بالفعل خمسمائة فرسخ طبقا لحســـاب قائد الأسطول ٠ الى أين يقصد أن يقودنا أبعد من هذا ؟ »

---

(١) القامة : وحدة قياس عمق المياه قدرها ست أقدام ٠

(المترجم)



« آه ، طبقا لحساب قائد الأسطول !! اننا أغبياء عندما نثق بكلمة رجل مجنون » .

« ولكن لابد أن هناك أرضا فى جهة ما . فالطيور ، وأعشاب البحر ... » .

« ياسلام ، كثيرا ماقيلت هذه القصة . لقد خدعنا بالكلمات المعسولة . ان هذا الكلب الجنوى قد تاجر بثقة الملكة . ولكن رجال سلامنكا قالوا منذ البداية ان من الجنون ... » .

« لماذا ، عندئذ ، لا نفعل شيئا فى هذا الشأن ؟ فاذا تعاونا معا أيها الرفاق فماذا سنخسر ؟ نستطيع أن نقول انه سقط فى اليم ، فمن ذا يكذب قولنا ؟

دعونا نعمل الآن ـ قبل فوات الفرصة ! هذه الليلة ذاتها . ألقوا به لسمك القرش ! »

« مهلا ، ياأخى ، لم يحن الوقت بعد » .

وبمثل هذه الملاحظة انتهى كثير من الليالى وبدأ كثير من الأيام.

عندما غربت الشمس فى الخامس والعشرين من سبتمبر كان كولمبس فى مقصورته يزيف سجل أحداث اليوم . والى يمين سفينته كانت بنتا تجرى بخفة أمام الرياح التجارية على مقربة منها ، عندما دوت صيحة عالية عبر الأمواج جعلت قائد الأسطول يقفز واقفا .

« الأرض ! الأرض ! ها . ها ! »

الأرض ! الأرض على مرمى البصر !

وحتى عندما أسرع كولمبس الى الدرج المؤدى من ظهر السفينة الى وسط السفينة سمع رجاله يرددون فى قوة نشيدا حماسيا يعبرون فيه عن شكرهم لله ٠

وارتفعت أصوات بحارة بنتا ونينا أيضا تردد الشكر للعلى القدير ٠ وطفح قلب القائد بامتنان عميق جعله يبتلع ريقه بصعوبة ٠ وصاح الفريدو وهو فى أعلى حبال السفينة ، انه هو أيضا كان يستطيع أن يرى الأرض على بعد حوالى خمسة وعشرين فرسخا فى الجنوب الغربى ٠

صاح كولمبس : « ساعدوا على تقصير الشراع ! »

« حولوها بثبات الى يسار مجراها » ٠

واستجابت سانتا ماريا فورا للأمر ٠ وحذت أخوانها حذوها ٠ وألقى بعض البحارة بأنفسهم فى البحر ، من شدة فرحهم ، وأخذوا يسبحون بحذاء السفينة ٠

أطبق الظلام ٠ ورقص الرجال وغنوا على ظهر السفينة ٠ ولم يغمض لأحد جفن ٠ ولم يشك أحد فى أن الصباح سيشهد نهاية لهذه الرحلة التى لا نهاية لها ٠ وبدت ثروة جزر الهند فى الأفق ٠

ولكن عند شروق الشمس اختفت رؤية الأرض ، فقد تلاشت فى غموض البحر ٠ وغمرت خيبة الأمل القاسية كل الرجال فى حالة من اليأس ٠ وطبقا للسجل العام لسرعة السفينة ، كانت سانتا ماريا قد أبحرت خمسمائة وعشرين فرسخا من جزيرة فيرو ٠ ولحسن الحظ لم يكن أحد سوى كولمبس يعرف مدى انحراف هذا التسجيل عن الحقيقة ، اذ أن دفتر يوميته السرى سجل رقما آخر وهو سبعمائة فرسخ وسبعة ٠

ولكن السفن ظلت أبدا تمخر عباب المحيط متجهة غربا • وجاءت بعض الطيور ، التى بدت لصغر حجمها أعجز من أن تطير مدة طويلة واختفت عند غروب الشمس • وكانت الأسماك التى رأوها من ذلك النوع الذى لا يسبح بعيدا عن الساحل • وكانت بعض الأغصان ، التى لم تزل الفاكهة عالقة بها ، تطفو مع حركة المد البطيئة • وبعثت نينا باشارة أن رجالها قد رأوا عصا وقصبة فى الماء ـ وكانت العصا صغيرة يبدو أنها قطعت بأداة حديدية • وقرر بحارة بنتا وجـــود غصن ذى أشواك يحمل توتا غضا « طازجا » •

ظل الجميع ، ليلا ونهارا ، يتطلعون الى الأفق فى كل اتجاه بكل قلوبهم وعقولهم • وكانت كل سحابة بعيدة تأخذ شكل الأرض • وكانت تسمع كل هنيهة ، من احدى السفن فى بادىء الأمر ثم من أخرى صيحة ابتهاج ولكنها زائفة : « الأرض • الأرض » •

وبعد سبعمائة فرسخ كان قائد الأسطول قد وثق بينه وبين نفسه فى الوصول الى جزيرة سيبانجو •

وبدأ الشك لأول مرة ينوش هدوء عقله • هل يمكن أن يكون قد أخطأ فى حساباته ؟ وعندما ظهر سرب كبير من طائر النوء (١) فوق السفينة ، صمم فى ذلك المساء على أن يتبعها فى طيرانها عائدة الى مواطنها • وأحدث هذا القرار ابتهاجا عظيما • ولكن مع أنهم اقتفوا أثر هذه الطيور بعناد تجاه الغرب ، لم يروا شيئا من الأرض فى ذلك اليوم ، ولا فى اليوم التالى ، ولا فى الذى بعده •

---

(١) طائر صغير أسود اللون ذو بياض على الأجنحة والذيل يعيش فى البحر المتوسط وشمال الأطلنطى وسمى بطائر النوء لأنه ينشط فى الطيران قبل هبوب العواصف والأنواء البحرية •

(المترجم)

واضطرم قلق البحارة كأنه حمى • لابد أن يحدث شيء حالا ، لقد فقد الرجال الثقة فى العلامات ، وتعلق تمرد البحارة بميزان رجراج •

وهبت العاصفة عندما وبخ قائد الأسطول مدير الدفة لأنه سمح للسفينة بالانحراف عن مجراها؛اذ انطلقت يد البحار الى حزامه بسرعة كلدغة الثعبان • ولمعت السكين •

ولكن كولمبس تجنب الضربة بالانحراف جانبا • وقفز الى الأمام وأمسك بالرجل من صديريته وطوحه بشدة ودحرجه على الدرج • وعندما ارتطم البحار بسطح وسط السفينة حدث صوت الارتطام •

كان يراقب المعركة ستة من الرجال العاملين فى صارى السفينة. وعندئذ تسابقوا الى درج مقدم السفينة وهم يصيحون • وتوقفوا فجأة ، لأن قائد الأسطول كان قد لوح بسلاحه النارى فى حلقة دائرية فى يده ، مما أرغم المتقدمين على الاتجاه الى مؤخر السفينة • ووقفوا يحملقون فى فوهة بندقية سوداء تهددهم •

وصاح كولمبس : الى الوراء ، أيها الحثالة ، والا فسأطلق النار ! » وصاح صوت متحديا : « استمع لنا ياسيدى القائد ، أستحلفك بالروح القدس ! هل تطلق النار على رجال عزل ؟ »

ورد عليه كولمبس بسرعة : « منذ متى يعتبر الرجل أعزل وهو يحمل سكينا فى يده ؟ خبرنى ماذا تريد من وقوفك حيث أنت • انى أطلق النار لأقتل أول رجل منكم يرتقى هذا الدرج » •

وكان الفريدو هو الذى أجاب هذه المرة: « انهم يطلبون أن تقفل راجعا ، ياسيدى القائد • عد الى اسبانيا » •

ورددت عشرات الأصوات هذه الصيحة : أى نعم ! عد قبل فوات الأوان • اننا نطالب بهذا ! »

وصاح قائد الأسطول باحتقار : « أنتم تطالبون ؟ اسكتوا هناك واستمعوا لى • ان هذه السفينة ستصل الى سيبانجو قبل أن تقفل راجعة • ولو بقى لوح خشبى واحـــد من هيكلها فسأظل فى مكان القيادة • هل هذا واضح لكم ؟ »

واحتج الفريدو بضعف قائلا : « لقد حزموا أمرهم ، أيها القائد. انهم أبحروا بالفعل أبعد مما طلبته منهم • انهم سوف لا يتقدمون أبعد من هذا » •

وصاح كولمبس كالرعد : « اذن الى حافة السفينة معهم • دعهم يسبحوا عائدين الى اسبانيا • فان هذه السفينة لا تعود ! »

وأدت فوهة السلاح النارى المستعدة للانطلاق ، وبريق العزم والاصرار فى عينى قائد الأسطول الى سيادة الصمت مؤقتا • وصاح أحد الأصوات قائلا : « انك تقودنا الى حتفنا أيها القائد • فان أية سفينة لا تستطيع العودة ضد الرياح التى تهب دائما الى الغرب ! »

وزمجر كولمبس قائلا : « فليمنحنى الله صبرا لأتعامل مع مثل هذا الأحمق • ألا تعلم أنه عندما تهب سلسلة من الرياح من جهة ما على الأرض ، تهب ريح مماثلة من الجهة المقابلة لها • وبمشيئة الله ، سنعود الى اسبانيا بفضل مثل هذه الريح • لقد أصبح لك فضل السفر فى المحيط أبعد من أى رجل آخر من قبل • والآن ترغب فى أن أقفل راجعا الى الوطن لتقول:دع أى انسان آخر يكتشف الطريق. لقد فشلنا ! » أنتم أيها الجبناء ! عودوا الى أعمالكم كالرجال اذ أنتم أحياء » •

وسيطر قائد الأسطول مرة أخرى على الموقف • وعاد الرجال الى أعمالهم متجهمين ولكن صامتين • ولكن كولمبس كان يعرف فى دخيلة نفسه أنه سيأتى يوم لا تنفع فيـــه الكلمات والتهديدات • ولكنه ، بفضل الله ، سوف يرى الأرض قبل ذلك اليوم •

لم يغمض لأحد جفن تلك الليلة • واتخذ قائد الأسطول مكانه المعتاد فى أعلى مؤخر السفينة • وأمر باشعال المصابيح القوية الضوء وأخذ ينظر أمامه فى الظلام بعيون جافاها النوم •

وحدثت المعجزة قبل منتصف الليل بساعتين • وغشى عينيه نور بعيد ، تذبذب مرة أو مرتين بحركة سريعة فى الأفق ، وكأنه قارب صياد يرتفع وينخفض على الأمواج • ودق قلبه بشدة • ولكن لم يجرؤ على الصـــياح قائلا : « الأرض ! » لأنه لم يثق بنفسه أو بحواسه • واستدعى رئيس الملاحين •

وهمس قائلا : « ان نظرك حاد ياالفريدو • خبرنى ماذا ترى هناك » •

واختفى الضوء عندما تكلم •

وحملق رئيس الملاحين فى الظلام : « لا أرى شيئا ، ياسيدى القائد » •

ثم عاود الضوء ظهوره : « انظر مرة أخرى ! »

« آه نعم ، نعم ! هناك ضوء » •

« اهدأ ! هل أنت متأكد ، ياالفريدو ؟ »

« أى نعم ياسيدى القائد ! لقـــد اختفى الآن ، ومع ذلك فقد رأيته ، أقسم على هذا » •

من المؤكد أن هذا ليس خداع بصر ! لقد رآه الفريدو أيضا ٠ فأمامنا بشر فى مكان ما فى الظلام ، وأرض مأهولة ٠ ولكن كثيرا ماقامت الآمال على أساس زائف ، وكثيرا ماتحطمت حتى ان كولمبس أمر الفريدو بالصمت ٠

ووقفا يحملقان فى الظلام وقد تلاصقت أكتافهما المرتعشة ٠

مضت الساعة بعد الساعة ٠ وكانت الساعة الرملية تحت مصباح مدير الدفة تشير الى الثانية صباحا، وبدت هياكل السفينتين الأخريين فى غير وضوح الى الجانب الأيمن من السفينة ، وبدا خط الأفق فى جهة الشرق محددا بوضوح ٠

وعندئذ صدر من السفينة بنتا ضوء شعلة ، ودوى مدفع ٠ انها الاشارة التى طال انتظارها !! لقد ظهرت الأرض ٠

وسرعان ماترددت الصيحة المدوية من بين دعائم الأشرعة :
« الأرض ! الأرض ! ها ٠ ها » ٠

كانت هناك الى الغرب جزيرة ، خضراء جميلة ٠

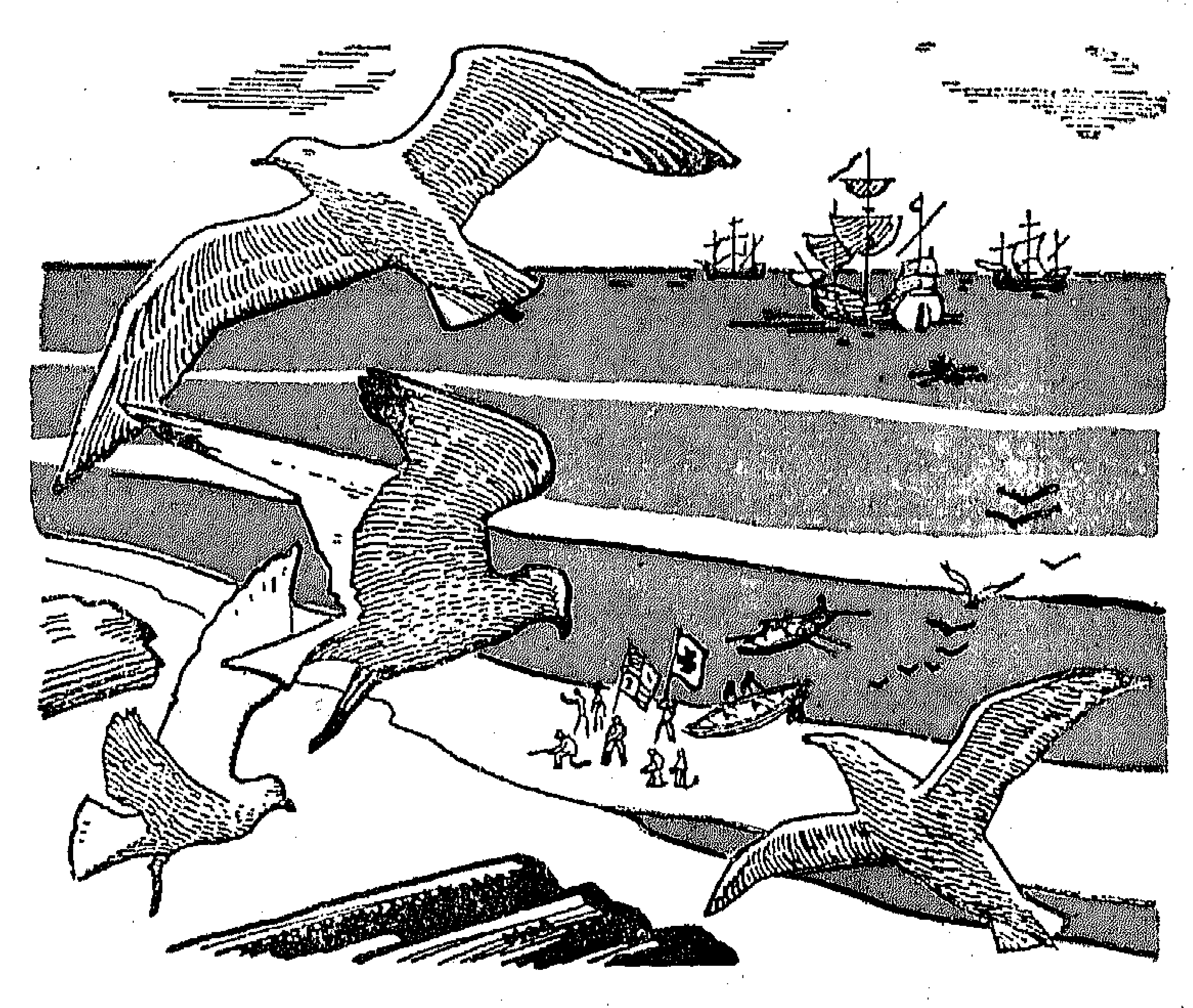
من يستطيع أن يخبرنا بمـــا كان يشعر به كولمبس فى تلك اللحظة ؟ لقد انتهى الانتظار الطويل ٠ وتجسد الحلم ٠ ودوت فى أذنيه أصوات رجاله وهم يغنون : «اننا نشكرك ياالهنا العلى القدير»٠ واشتركت أصوات من السفن الأخرى فى ترديد هذا النشيد المقدس٠

شقت السفن الثلاث طريقها عبر تيارات خط الاستواء ،مدفوعة بالريح المواتية ، وبددت « خشخشتها » وهى تشق الماء السكون الذى خيم على العالم فى ذلك الصباح ٠

كان اليوم يوم الجمعة ، الثانى عشر من أكتوبر من عام ١٤٩٢ ٠

الفصل الثامن

ما أروع خضرة الأرض



بدت الأرض عند ظهورها للأعين التى أرهقها البحر وكأنها قلب قطعة من الزمرد . وتردد صوت الأمواج الصاخبة المتكسرة على صخور الشاطىء فى الآذان التى أصمها صفق الأشرعة وضوضاؤها ، وكأنه صيحة ترحيب . واستمتع الرجال الذين اصطفوا على أسوار السفن الثلاث ، أو أولئك الذين تعلقوا كالذباب بحبالها ، بمنظر الأرض الحية . فبعد واحد وسبعين يوما فى البحر ، كان يرجى من

هذه الأرض أن تمدهم بالطعام « الطازج » والماء والراحة والمتعة • وبالنسبة لقائدهم الأعلى ، كانت ترمز للقدر الذى تحقق ، والواجب الذى مازال يلزم القيام به •

وحملق كولمبس طويلا بنظرة باحثة وهو مرفوع الرأس الى هذه القطعة من الأرض التى أصبح عليها ، بمرسوم ملكى ، نائبا عن الملك وحاكما عاما • ولم يساوره الشك أنها كانت الباب المؤدى الى مملكة الخان الأعظم ــ احدى الجزر الكثيرة التى ميز بها ماركوبولو أرخبيل جزر الهند •

قصر الشراع عندما أصبح الأسطول الصغير فى مهب الريح • واستسلم مرشد سانتا ماريا الى أنه لم يجد قاعا بمقياسه الذى طوله أربعون قامة ، واكتشف فجأة أن سبر غور الماء غير ضرورى تقريبا لأنه أمكن سبر غور الماء الصافى كالزجاج بالعين المجردة • •

وصاح المرشد : « بالعلامة سبع درجات ! »

« بالعلامة ست ••• بالعلامة خمس ونصف ••• »

« أنزلوا المرساة » •

وانبعثت من « رشاش » الماء عند مقدم كل سفينة سحب من الرذاذ أخذت تئز وتصرخ فوق صخور الشاطىء•وتمايلت سانتاماريا فى طريقها الى الرسو •

ودرس كولمبس المنظر بعيون محمومة فرأى أشجار النخيل التى بدت غريبة فى نظره ، تصطف بحذاء الشاطىء • ومن ورائها ارتفعت الغابة طبقة فوق طبقة مليئة بأشجار الصنوبر الهائلة الحجم ، والغاب الطويل ، والأزهار الزاهية الألوان كالببغاوات التى كانت ترفرف بين

الأشجار • وكان الهواء عليلا كالربيع فى الأندلس ، هب على السفينة معبأ بروائح عطرية لا يمكن تسميتها •

وبينما كان قائد الأســطول يقف ذاهلا رأى أشكالا رشيقة تتسلل من مخبأ الى مخبأ بين أوراق الشجر • انهم بدائيون عراة ، هنود ، ومع ذلك كانوا لا يزدادون سمرة عن الاسبانيين أنفسهم •

أعدت القوارب الطويلة للذهاب الى الشاطىء • وكان بعض البحارة قد تحولوا الى جنود فتسلحوا بالبنادق والأقواس • وتقلد كولمبس سيفه واتشح برداء (القائد العام) ، لأنه أصبح مبعوثا الى الخان الأعظم • ولمع صليب ذهبى على صدره ، وأطبقت يده على علم قشتالة • وانتقل من السفينة الى القارب الذى كان ينتظره ، يتبعه مســجل العقود رودوريجو دى اسكوفيدو ، وارادندا المشرف على الأسلحة ، وكوسا المرشد ، والفريدو وحفنة من الآخرين •

وجاءت قوارب من بنتا ونينا تحمل الأخوين بنزون وأتباعهما • وكانوا هم الذين يحملون أعلام البعثة : بيارق بيضاء مزينة بصليب أخضر • واتجه رجال المجاديف الى نقطة فى الشاطىء حيث يوجــد مدخل يسمح بالمرور فى يسر عبر أمواج الشاطىء الصاخبة •

وعندما لامس صدر القارب الشــاطىء المرجانى ، قفز قائد الأسطول من عليه الى الماء الضحل • وسار فى حماسة على الشاطىء وخر على قدميه وقبل الأرض • وركع أتباعه من خلفه فى حين كان يصلى صلاة الشكر •

وارتعشت الأصوات وهى تنشــد نشيد : « السلام عليــك يامريم » (١) • ونهض قائد الأسطول وأمسك بيد مارتن بنزون وقال

---

(١) نشيد دينى للتعبير عن الشكر •

(المترجم)

فى تحمس : « مبارك هو الرب لكل رحمته • انى لا أعرف ماذا يكون هذا المكان ، ولكنى وجدت أرضا بالابحار غربا ! ان هذا مسوغ لكل ماتحملت من مشاق » •

وقال الآخر موافقا وهو يهز يد قائده : وحـــق الله ، ان الأمر لكذلك ! » ونسى بنزون فى غمرة الموقف الراهن كل الضغائن التى كان يحبسها فى صدره ضد قائده : « ان من يضحك أخيرا يضحك طويلا • ستضحك الأجيال القادمة على أدعياء العلم فى سلامنكا » •

احتشد كل الرجال عندما ثبت كولمبس العلم الملكى فى الأرض معلنا الملكية الرسمية لهذه الأرض باسم سادته،واستل قائد الأسطول سيفه ورفع رأسه وصاح قائلا : « ياأرض خلاصى ، انى أسميك سان سلفادور باسم فادينا (المسيح) » •

وأخرج مسجل العقود اسكوفيدو وثيقة التسجيل وقد عقـــد الذين تجمعوا على الشاطىء أيديهم فى وقار وهم يشهدون اعلان قائد الأسطول •

وفى تلك الأثناء كان يتجمع ألف أو أكثر من البدائيين ــ الذين سماهم كولمبس خطأ بالهنود ــ بسرعة فى الغابة المحصنة • وتغلب حب الاستطلاع على الحذر عنـــدما حملقوا ذاهلين فى البشر الغرباء الراكعين على الشاطىء • وكانت الطيور الثلاثة الهائلة التى نقلت هؤلاء الزوار المفاجئين قد أخذت تضم أجنحتها البيضاء •انه لمن المؤكد أنها قد جاءت رأسا طائرة من السماء !

وأطل الهنود ببطء من مكمنهم،ومع أنهم كانوا مسلحين بحراب ذات أسنة من العظام،فلم يبد منهم أى عداء أو خوف بل كانوا يتكلمون برقة متحمسين لارضاء الغير ، وكانت عيونهم وديعة • وارتسمت

الرهبة على وجوههم • وكان بعضهم قد غطى جسده العارى بالطلاء ، والقليل من متقدمى السن كانوا يحملون فى أنوفهم دبابيس من معدن أصفر ، عرفوا فورا أنه ذهب خالص •

شجعهم كولمبس على الاقتراب ببعض الحركات الودية• واذا كان الهنود لم يفهموا الكلمات التى استعملها • فانهم لم يخطئوا الحرارة التى تجلت فى ابتسامته • وكان برميل ملىء بالسلع التجارية قد نقل الى الشاطىء ، وتنهد الهنود فى دهشـــة عندما كشف عن كنوزه • وبدرت عنهم صـــيحات الابتهاج لرؤيتهم الخرز الزجاجى الزاهى الألوان ، والمرايا ، والقبعات الحمـراء • وقد حيرتهم بوجـــه خاص الأجراس المعدنية الصغيرة فالتمعت عيونهم بالسرور لسماع الرنين العذب •

وامتدت أصابع أحد البدائيين ــ وكان أشجع من زملائه ــ الى قماش كم قائد الأسطول يتحسس نسيجه • ومنح هذا العمل فرصة لكولمبس لكى يحيط عنق الهندى بقلادة براقة • وتناقص بسرعة مخزن السلع التجارية بعد أن تقدم البدائيون فى حماسة الواحد بعد الآخر لكى يتزينوا بنفس الطريقة • وزالت الكلفة • وأخذ ألف انسان كل منهم يشبه طائر الشقشق (١) يرقصون ويثرثرون على الشاطىء • وكان أكثر من هؤلاء يطلون من مخبئهم بين الأشجار •

لزم كولمبس ورجاله الشاطىء بقية ذلك اليوم الموعود•وتذوقوا فواكه غير معروفة لهم مفرطة الحلاوة أحضرها لهم الهنود الودودون ،

---

(١) الشقشق : طائر صغير الحجم ذو ذيل مدرج طويل ذى ريش أبيض وأسود ، وهو كثير الشقشقة ، ولذلك سمى بالشقشق •

(المترجم)

والتهموا فطائر الخبز المحلى المصنوع من الكاسافا (١) • وسبحوا فى الأنهار الصافية التى تشابكت على سطح الجزيرة التى اكتشفوا أن اسمها الهندى كان « جواناهانى » •

قدم البدائيون للغرباء كل ماكانوا يملكونه كدليل على الارادة الطيبة : حرابهم ، وطعامهم ، وضفائر من غزل قطنهم الوطنى ، التى أدرك القائد قيمتها بسرعة • وكان مما أدخل السرور على البحارة الاسبان أنهم قدموا أيضا ، ببغاوات مستأنسة كانت تستطيع تقليد أصوات الكلام الانسانى •

ولكن الدبابيس الذهبية - المعلقة بالأنوف - هى التى سحرت القائد على وجه الخصوص • وحاول بلغة الاشارة اكتشاف المكان الذى جاء منه هذا المعدن • وأبلغه الهنود بطريقة مماثلة أنه يمكن أن يوجد على جزيرة كبيرة على مسافة بعيدة الى الجنوب تسمى ساموا •

فصاح مارتن بنزون - والشرر يتطاير من عينيه : « لابد أنها سيبانجو • ولا داعى لأن نتلكأ هنا ، ياسيدى القائد ، مادام هناك محصول وفير ينتظرنا فى مكان آخر • ان هؤلاء البدائيين فقراء مدقعون • ان دبابيس الأنف التافهة هذه لا تزيد قيمتها عن ألف مارافيدس • دعنا نسع الى ساموا هذه فى الحال •

وأبدى مارتن الونزو ضيقه عندما أصر قائد الأسطول على البقاء يوما آخر فى سان سلفادور ليتقصى أحوال الجزيرة •

وفى أثناء ذلك أعيد ملء براميل الماء • وقطعت كمية من خشب الوقود ونقلت الى ظهر السفن • وعبئت كميات من الفواكه الغضة ، والسمك المجفف ، وفطائر الكاسافا ، لسد الحاجة فى المستقبل •

---

(١) شجرة ذات ثمرة تشبه البطاطا يصنع منها الوطنيون الخبز •
(المترجم)

دعا كولمبس سبعة من الهنود الى الابحار معه ، آملا أن يتعلموا تكلم الاسبانية وبذلك يصبحون مترجمين على جزر أخرى • وقبلت الدعوة بحماسة • وكان الفريدو هو الذى تعهد بتعليمهم • وكان يشير الى مختلف الأشياء ، كالقوارب والأسلحة بلهجة أهل قشتالة فى حين كان الهنود لسرعة فهمهم يكررون الصوت بطريقة الببغاء • وبرهنوا على أنهم تلاميذ أذكياء أكفاء •

وبدا أن أوراق النباتات المتألقة فى سان سلفادور لم تكد تختفى حتى ظهرت للعيان جزيرة بعد جزيرة طافية كالفقاقيع اللامعة على سطح البحر • وأكد الهنود السبعة أن هذه الأراضى الظاهرة فى البحر يوجد منها بعدد شعر رأس الانسان • وكانت لديهم أسماء لأكثر من مائة منها •

وعلى بعد حوالى خمسة فراسخ ، لاحت فى الأفق جزيرة أكبر من الأخريات ، وهنا ألقت السفن مراسيها • ونزل كولمبس على الشاطىء • وسجل ماحدث فى تلك الليلة فى دفتر يومياته بالكلمات الآتية :

« لقد سميت هذه الجزيرة الكبيرة سانتا ماريا العذراء ونزلت الى الشاطىء لأكتشف مابها من ذهب ؛ لأن هنودى أكدوا لى أن الناس يضعون على أذرعتهم وأرجلهم أساور ثقيلة من الذهب » •

ومن المؤكد أن هذا كان خدعة فحسب ، لأنه سبق أن ندم المترجمون على الصفقة ، وكانوا يأملون فى أن يتمكنوا من الهرب •

وكان قارب يقف بجوار نينا وقفز أحد الهنود فى البحر وصعد الى القارب وجدف مبتعدا بسرعة حتى ان أحدا من رجالى لم يستطع اللحاق به • وعندئذ هرب كل

الوطنيين والسكان الأصليين ، فى كل اتجاه ، كالدجاج المذعور .

أعيد القارب المهجور الى نينا . واقترب قارب آخر ، يشغله واحد ، من السفينة . ولم يكن هـذا الشخص راغبا فى الصـــعود الى ظهر السفينة ، ولكنه قدم قطنا مغزولا للمقايضة .

وقفز بعض البحارة الى الماء وألقوا القبض عليه . وجاءوا بالرجل فى الحال . ولكننى أعدته الى موطنه ؛ اذ كان يعلق حول رقبته خرزا زجاجيا ، وجرسين من أجراس الصقور فى أذنيه . وأراد أن يهدينى قطنه المغزول ولكننى لم آخذه . وبينما كنا نبحر مبتعدين كنت أرى الأهالى متجمعين حوله على الشاطىء .

أكد لى هنودى أن هناك جزيرة أكبر تقع الى الجنوب ، يسمونها كولبا ، أو كوبا . واذا كان هذا صحيحا ، فانها بلا شك سيبانجو . وقست الارتفاع الليلة الماضية بآلة قياس الزوايا فوجدت أننا على بعد ٢١ درجة فوق خط الاعتدال . وأظهرت حساباتى أننا قد أبحرنا ١٤٢ر١ فرسخا منذ تركنا جزيرة فيرو . ولابد أن كوبا هى البر الأصلى الذى أبحث عنه . وسوف أسلم رسائل أصحاب الجـــلالة وهداياهم الى الخان الأعظم وأعود فى الحال الى اسبانيا حاملا رده عليها » .

ولكن عندما أبحر كولمبس متجها الى مكان الرسو بعيدا عن ساحل كوبا وأرسلت القوارب الى الشاطىء ، بعد ذلك بيوم أو يومين لم يظهر أى أثر للخان الأعظم . وفى الواقع أن كل السكان كانوا قد هجروا بيوتهم . وأقفرت القرى من أهلها . وتناثرت أدوات الصيد فى كل مكان وقد تركوها مسرعين ، وكذلك الطعام لم يكن قد تم

التهامه • وكانت هناك طيور وكلاب مستأنسة ، كلاب غريبة بكماء لا تقوى على النباح • ولكن لم يكن هناك ناس ، ولم يكن هناك ما يدل على وجود ذهب •

وعندما ملأ البحارة براميلهم بالماء ــ وكانوا عائدين الى السفينة ــ ظهر شخص وحيد على حافة الغابة •

وعندما جلس القرفصاء بدا أنه يستعد للهرب • ربما أرسلته قبيلته للاستطلاع لأنه كان لم يزل هناك عندما أسرع قائد الأسطول الى الشاطىء مصطحبا معه مترجما • وعندما أصبح ذلك الشخص على مسافة تسمح له بالسمع صاح المترجم قائلا بأنه ليس هناك ما يخشاه من الرجال البيض ، وأنهم قد جاءوا كأصدقاء يحملون الكثير من الهدايا •

وعند سماع هـذا الاعلان الودى برز عشرات من الهنود من مخابئهم ، وقفز المترجم من فوق ظهر المركب وسبح الى الشاطىء • وسرعان ما أحاطت به جماعة من الغوغاء يثرثرون • ولابد أنه نجح فى اقناعهم أن الاسبان لم يقصدوا بهم ضررا ، لأن أسطولا صغيرا من القوارب كان قد اتجه الى السفن •

وثرثر الأهالى كطيور البحر ، وعرضوا قطنهم للمقايضة بأية حلى ، مهما كانت رخيصة ، ولكن قائد الأسطول لم يكن يقبل سوى الذهب • وكان أحد الوطنيين يضع قطعة من الفضة محشورة فى فتحة فى أذنه ، ولم يكن هناك أى أثر آخر للمعدن • لم يكن هناك وجود للذهب •

وأتيح للاسبان أن يفهموا بوساطة المترجم أن ملكا قويا كان يسكن على مسافة رحلة أربعة أيام • وقد سبق أن أخبر هذا السلطان بوصول الرجال البيض • وقال الأهالى ، أو ظن أنهم قالوا ، ان مئات التجار سوف يصلون فورا من العاصمة لمقايضة بضائعهم • ولم يكن هذا يعنى بالنسبة لكريستوفر كولمبس الا شيئا واحدا : أنه أخيرا قد وصل الى مدخل كاثاى • وكان مارتن الونزو من نفس الرأى •

وأخذ صبر بنزون ينفد، وتساءل غاضبا : متى يمكن أن يتوقعوا أن يكافأوا بسخاء ؟ أين هى مدن كاثاى المحلاة بالجواهر ، والفيلة ذات الأنياب المذهبة ، والشوارع المرصوفة بالذهب ؟

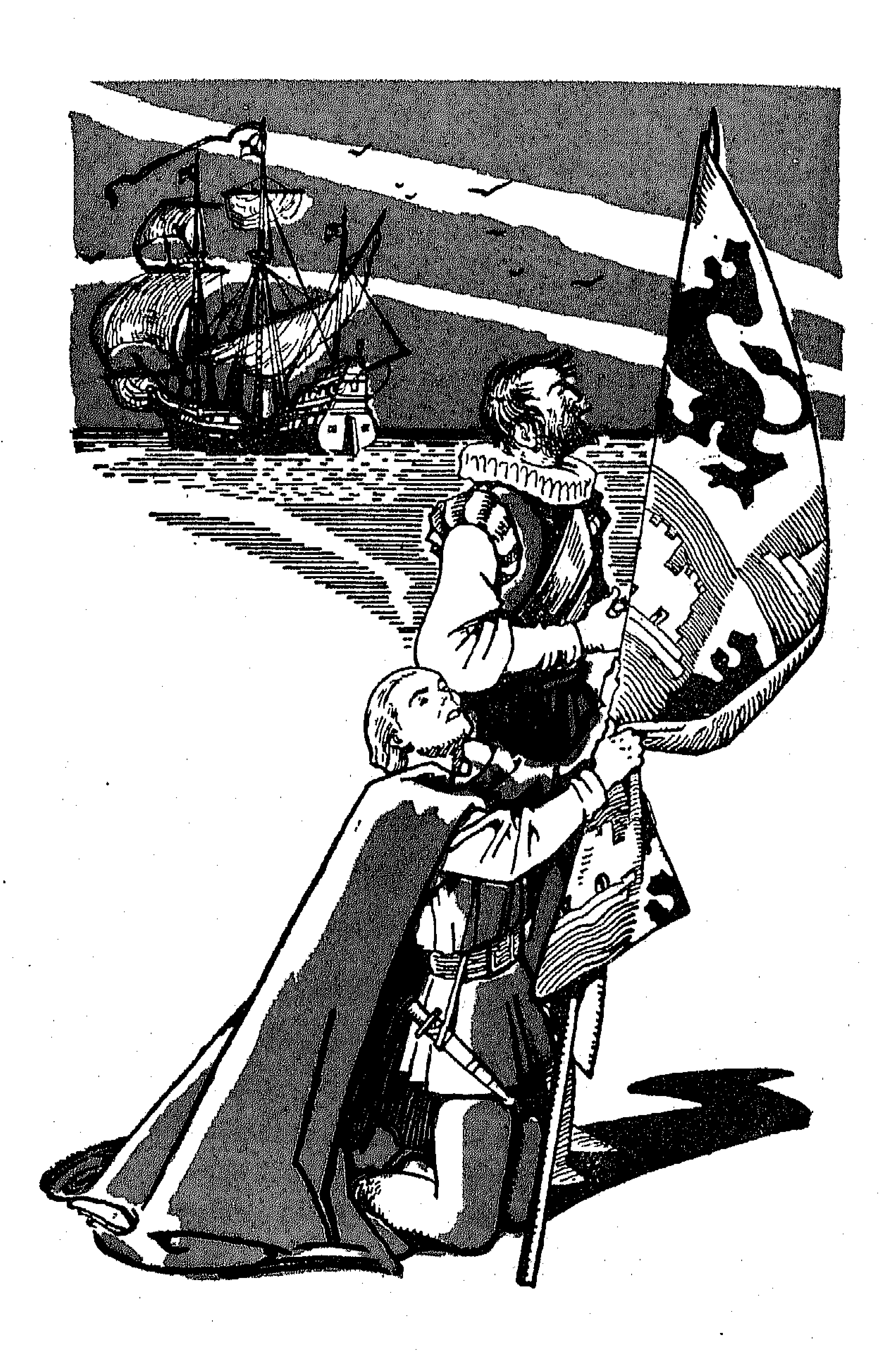
وأخبر قائده قائلا : « من الواضح عندى أن **كوبا** هى المرسى الرئيسى الذى نبحث عنه ويمكنك أن تعرف هذا من الذعر الذى اجتاح الوطنيين • ومن الواضح أن الخان الأعظم يأتى هنا فى حملات لجمع الرقيق • وانى أقول يكفينا هذا الانتظار كما يهوى الأهلون • أعطنى ستة رجال مسلحين ياسيدى القائد وسوف أذهب الى الداخل لأبحث عن الخان نفسه » •

وافق كولمبس • وكان على بنزون عندما يصل الى البلاط الملكى أن يخبر الخان الأعظم أن الملوك الأسبان قد أرسلوا قائد أسطولهم الى تلك الشواطئ بخطابات وهدايا ثمينة •

وطلب قائد الأسطول المثول بين يدى جلالته لتسليم هــذه الهدايا •

واختار مارتن الونزو رجاله لهذه الرحلة، وكان من بينهم لويس دى توريز الذى كان يعتقد أن معرفته باللاتينية والعبرية والكلدانية ، نافعة فى التحدث مع الخان • وكان المفروض أن تعود الجماعة خلال ستة أيام حاملة اجابة السلطان ، على حين تكون السفن قد رممت وأعدت لرحلة العودة الى الوطن •

وفى الموعد المقرر ، فى السادس من نوفمــبر ، عاد السفراء مجهدين خائرى العزيمة • فبعد أن قطعوا حوالى خمسين ميلا فى الغابة الداخلة صادفوا قرية كبيرة • فاستقبلوا بترحاب شديد • وثبت أن معرفة لويس دى توريز باللغات لا فائدة منها ؛ اذ أن الناس لم يفهموا



كلمة واحدة مما قاله بأية لغة . ولكن عندما اكتشف وجود الملك الوطنى لم تكن هناك حاجة لسؤاله عن الذهب أو اللآلىء : فقد كان كرعاياه عاريا شديد الفقر . ولم يكن قد سمع أبدا عن سيبانجو أو الخان الأعظم . وكانت العاصمة أبعد من أن تكون مسقوفة بالذهب ومطعمة بالجواهر ، لقد كانت خليطا قذرا من الأكواخ .

ولكن اكتشفت حقيقة واحدة غير عادية ؛ فقد كان لدى الهنود عادة غريبة وهى وضـــع لفة من أوراق الشجر الجافة فى أفواههم ، يشعلونها وينهلون دخانها . وكانوا يسمون هذه الأوراق توباكاس (الطباق) . وجلب مارتن الونزو معه كمية من الطباق ؛ لأنه لم يرغب فى أن يعود الى قائده صفر اليدين تماما ، وسرعان ماأضافها قائد الأسطول الى مخزن عجائبه . وتحدث الزعيم الهندى أيضا عن جزيرة كبيرة فى الجنوب ، تسمى بوهيو ، والذهاب الى هناك هلاك مؤكد . لأن بوهيو كان يسكنها جنس من البشر يسمى ـ كانيبا ـ أى أكلة البشر . ولكن كولمبس هزىء يمثل هذه الفكرة ، وربط فى الحال بين كلمة كانيبا والخان الأعظم .

وبالتالى ، صدرت الأوامر بالاقلاع . وأخبر القائد ضباطه أن الأسطول سيتقدم فى اتجاه غربى الى جزيرة بوهيو الغامضة .

ولسوء حظ هذه الخطة ، ألهب هنديان من بين هنود جوانهانى الذين أنزلوهم على السفينة بنتا ـ خيال مارتن الونزو بأقاصيصهما عن جزيرة الذهب التى تسمى بابك ، والتى كانت تقع فى جهـــة الشرق . فثار جشع بنزون لدرجة أنه فقد صوابه تماما .

وفكر مليا فى الفروق المتعددة فى الرأى التى أضرت بصداقته لقائد الأسيطول . وكان يسمح دائما بأن يطغى حكم كولمبس على حكمه الشخصى .

وسأل نفسه عما اذا كان من الممكن تنفيذ هذا المشروع أصلا بدون مساعدته ·

وجاءه الجواب : كلا ، ألف مرة ، فقد كان كولمبس مدينا له بكل معروف · أما عن معاملة هؤلاء الوطنيين باحترام ــ فيا له من هراء · فلندع هؤلاء الأهلين الى ابراز ذهبهم ، أو فليذوقوا لذع السياط ·

وتأتى الآن هذه النزوة الأخيرة ــ أن يبحر فى اتجاه الغرب بحثا عن بوهيو · انه لأمر مضحك ! ولسوف يعمل هو ــ مارتن بنزون ــ على وضع مقاليد الأمور بين يديه · ان جزيرة الذهب بابك تقع الى الشرق ، وسوف يبحر الى هناك فى الحال ، ويحمل سفينته بالمعدن الثمين وسيكون أول من يعود الى اسبانيا · وعندئذ دع السيد قائد الأسطول يستخلص لنفسه مايشاء من ألقاب الشرف ·

وكان من نتيجة ذلك أن سبقت بنتا الأسطول الصغير فى اليوم اللاحق لترك كوبا · وعند غروب الشمس كانت قد اختفت فى الأفق. وأخذ قائد الأسطول يبعث باشارات ضوئية طوال ليلة مليئة بالقلق. ولكن الاشارات ظلت بلا اجابة وظل الأفق خاليا من الأشرعة فى صباح اليوم التالى · ولم يعد هناك أى مجال للشك فى أن بنتا قد هربت ·

أصبح أسطول القائد سفينتين فحسب · ولو أن احداهما تحطمت لما أمكن تصور ماقد يحدث للبعثة · أما محاولة اقتفاء أثر الهارب فأمر ميئوس منه لأن البنتا كانت أسرعها جميعا · وشعر كولمبس بانقباض صدره ، وذلك ليس لأجل سلامة رجاله فحسب ، بل للضربة التى وجهها اليه أحد الذين كان يعتبرهم أصدقاء ·

وصلت سانتا ماريا ونينا الى نهاية الساحل الكوبى خلال يومين واضطر القائد الى اتخاذ قرار · فما لم تعد بنتا الى الأسطول ، فانه

من الخطر البحث أكثر من ذلك عن الخان الأعظم ـ وهو الهدف الأساسى من البعثة • وفى هذه اللحظة اتجه قائد الأسطول مباشرة الى جزيرة مرتفعة غريبة المنظر بدت للعيان • ولم يستطع أن يقـــدر كم كان قراره مؤقتا •

كانت الجزيرة مرتفعة ونائية يظلل الغموض مرتفعاتها الخضراء . وبدا أنها تخيف المترجمين الهنود • وأعلنوا أن اسمها هايتى ، وأن سكانها من الكانيبا المتعطشين للدماء • وتوسلوا الى القائد أن يتجنب المرور بها • ولكن لم يكن كولمبس حر الاختيار فى أن يركن الى الرسو لهبوب عاصفة فى عرض البحر • وكانت مدافع سانتا ماريا متمرنة على صد أى هجوم محتمل • وانطوت نينا تحت حماية السفينة الكبيرة • وسواء أكانت الجزيرة هى هايتى أم غيرها فقد رفع قائد الأسطول علم المسيحية على الجزيرة الهائلة هسبانيولا مدعيا ملكيتها باسم سادته •

وبرزت القوارب مسرعة من الشاطىء وراقب الاسبان تقدمها فى خوف • ولكن الزعيم الوطنى الذى تسلق ظهر السفينة يتبعه جيش صغير من الأتباع كان أعزل عاريا ودودا • ومع ذلك فقد كان على شىء من المكر والتحفظ أثار ريبة كولمبس • وقدم نفســـه على أنه « جواكاناجارى » الزعيم أو ملك الجزيرة •

وقف قائد الأسطول لاستقبال جواكاناجارى بكل حفاوة تليق بمكانته العالية • وأخبر الزعيم بوساطة المترجم أن كولمبس قد حضر كسفير للحاكم الأعلى لبلد آخر هو قشتالة : وهو حاكم يعتبر أقوى أمير فى العالم كله • ولكن الملك الهندى لم يصدق كلمة واحدة من هذا ، وكان مقتنعا أن البيض الغرباء قد جاءوا توا من السماء فى سفنهم التى تشبه الطيور العظيمة •

وأخرج كولمبس بعض الأشياء الذهبية ، محاولا اكتشاف ما اذا كان « جواكاناجارى » يعرف المعدن الذى يثـــير الطمع . وحملق الملك فى الذهب وهو زائغ البصر ثم هز رأسه . لم يكن يعرف شيئا عن الذهب . وأشار الى الشاطىء يدعوهم الى قريته . وكانت القرية متواضعة الى أقصى حد ، مع أنها كانت محاطة بحقول غنية خضراء . وكان أهل هايتى يرتدون القليل من الثياب كالأطفال الحديثى الولادة، ولكن أمكن ملاحظة أنهم كانوا يعيشون فى سلام ورخاء .

وعند هذه النقطة انتاب سلوك « جواكاناجارى » بعض التغير . وانفجر يتحدث فى سرعة وطلاقة وأشار بعصبية اشارة اتجهت من الأشياء الذهبية التى كانت فى يدى قائد الأسطول الى مكان ما فى الأفق الغربى . وأعلن المترجمون أنه كان يوضح ، أنه فى منطقة تسمى « سيباو » يتوافر الذهب لدرجة أنهم يصنعون منه أسقف المنازل . وخفق قلب كولمبس بالأمل . سيباو !! من المؤكد أن هذا لا يمكن أن يكون سوى الاسم الهندى لسيبانجو . ويجب ألا يضيع وقت أكثر من هـــذا مع هـــؤلاء الوطنيين المدقعين . وسوف يترك هسبانيولا فورا ، ذلك المساء ذاته . وأرسل الملك الى الشاطىء فى الحال ، ذلك الملك السعيد الذى يملك زوجا من الأحذية الحمراء وقدرا من عصير البرتقال ، وأصدر أوامره بالاقلاع .

كانت العاصفة قد مرت بسلام . وهب نسيم من البر فى اتجاه البحر ورأى قائد الأسطول أن ينتهز الفرصة . وتركزت كل أفكاره وآماله على الوصول الى سيباو وبأسرع ما يمكن . وكانت الظروف ملائمة للرحيل فورا ؛ اذ كان المرفأ الداخلى رائعا وكأنه بحيرة ، وفى الغرب كان الهلال يتلألأ .

ولكن الحظ السيىء الذى ابتلى به كولمبس لسنين طويلة استعد مرة أخرى لكى يصيبه . وكان الوقت منتصف الليـــل فى وقفة

عيد الميلاد عندما أقلعت السفينتان في جرأة الى عرض البحر • وبعد الالتفاف حول الرأس الذى يكون الحد الشرقى للميناء تباطأت الريح حتى انه كان من الصعب توجيه السفن • ولكن الساحل كان واضحا ولم يكن هناك سبب للانزعاج •

هنا أدت مراقبة كولمبس المستمرة والتى أجبر عليها بسبب روح رجاله العدائية ، الى نتيجتها الطبيعية ! فقد ظل ينام نوما متقطعا لمدة أسابيع • وأصبح الآن من التعب بحيث لم يعد يقوى على السيطرة على سطح مؤخر السفينة بدون راحة لمدة ساعة • وكان كوسا المرشد يعرف عمله الذى استحوذ على اهتمام كبير الضباط • وكانوا بالتأكيد قادرين على العناية بالسفينة لمدة ساعة ! وبعد أن ألقى عليهم كولمبس بتعليماته النهائية ! سار الى مقصورته متمايلا • واستلقى على سريره وهو بكامل ملابسه واستغرق فى النوم فى الحال •

لم يستمتع كوسا كثيرا بهذه الراحة من المراقبة ؛ فقد كان هو أيضا مجهدا ، ولم يجد سببا يبرر ضرورة بقائه متيقظا على حين أن قائد الأسطول الأجنبى المولد ــ قاتله الله ــ يسبح فى أحلامه •

وأومأ كوسا الى أحد خدم السفينة وسلمه مقبض دفة السفينة وعلمه فى صوت منخفض كيف يحافظ على اتجاه السفينة • ولم يلحظ ضابط المراقبة شيئا وهــو فى غفوته فى ظل القمر تحت الشراع الرئيسى •

ثم زحف كوسا الى مقصورته • وبمثل هــذه الطريقة قوض هروب مارتن بنزون سلطة القائد الأعلى •

لم يحدث أن عهد بمقبض دفة سانتا ماريا الى خادم سفينة • وكان البحر فى حركة جزر ، ودفع تيار قوى سفينة القائد فى اتجاه

حاجز رملي مختبيء برز بعيدا عن الرأس • ولكن الصبي الذي كان يقبض على الدفة ، والذى حافظ على اتجاه السفينة كما قيل له ، لم يلحظ شيئا غير عادي • واصطدمت السفينة بالحاجز الرملي برفق واستقرت هناك ، حتى ان أحدا لم يلحظ الصدمة •

لم يتحقق الصبي السيىء الحظ مما حدث الا عندما امتنعت الدفة عن الاستجابة بين يديه • وعندئذ صاح فى رعب مناديا كوسا • ولكنه لم يستجب له ، وأخذ الصبي ينشج وهو يحاول جاهدا تحريك مقبض الدفة المتوقف •

استيقظ ضابط المراقبة • وانطلق من فيه قسم غليظ : « لقد نزلت بنا الى الأرض ياسانتسما !! اننا نغرق ! »

أمسك بحبل جرس السفينة ودقه بعنف ـ وهى اشارة مخصصة للخطر الداهم فقط •

وفى الحال شمل الضجيج السفينة كلها • وتدفق الرجال من باطن السفينة كالفئران التى تهجر سفينة غارقة • وألقى صليل الجرس بالرعب فى قلب كل شخص •

أيقظت الضوضاء كولمبس واعتلى الدرج المؤدى الى السطح قفزا • ولم يكن فى حاجة الى سماع ضجيج الأمواج العالية ، وهى قريبة منه • لتخبره بما حدث • وشعر ، أكثر مما سمع ، باحتكاك قاع سفينته وهى تغوص شيئا فشيئا فى الرمال • وكانت قد مالت بشدة على جانبها الأيمن • وكان من الصعب الوقوف فوق سطحها المتأرجح • لقد رسوا على شاطىء بلد همجى !! فليعنهم الله جميعا !

صاح القائد : أنزلوا القارب الطويل ! اقفزوا اليه أيها الرجال ! القوا المرساة نحو مؤخر السفينة • قد نستطيع أن ننتشلها •

أنزلوا القارب من حوامله وهم فى حالة هوس • وقفز اليـــه كبير الضباط وستة من الرجال وأمسكوا بالمجاديف • وبدلا من الاستماع الى أوامر قائدهم اندفعوا بالقارب فى الظلام فى اتجـــاه السفينة نينا ، وهم يظنون أنهم سيكونون فى مأمن على ظهرها • وليذهب قائد الأســـطول وباقى البحارة الى قاع البحر اذا كانوا يحرصون على ذلك •

كان تخلى البحار عن عمله فى مواجهة الخطر يعتبر أخطر جريمة يمكن أن يرتكبها بحار ، وكان عقابها الموت • ولكن كولمبس عرف بمرارة أنه لن يمكنه عقاب أولئك البائسين الذين خذلوه ؛ ان روح التمرد التى أطلقها مارتن بنزون كانت معدة للثورة •

أما وقد هجره فريق من بحارته والبحر فى حركة جزر والسفينة منحرفة انحرافا خطيرا ، فقد قطع كولمبس الشراع الرئيسى كعلاج يائس لهذه الحال • ولكن كل مجهود ذهب سدى ؛ اذ لم يفكر البحارة المذعورون فى شىء الا فى أنفسهم • وكان غطاء الكوة الرئيسية قد تمزق • واذا عادت حركة المد والجزر فان سانتا ماريا سوف تغرق بمعنى الكلمة • أسرع قائد الأسطول الى أسفل وهو يحرق الأرم ، وجمع كولمبس خرائطه ويوميته وأدواته القليلة • وبعد أن وصل آخر رجاله سالما الى ظهر السفينة نينا ترك سفينته تواجه مصيرها • والآن لم يبق سوى نينا الصغيرة لتحمل مائة رجل عائدة عبر المحيط الواسع •

انجلى الفجر عن سفينة القيادة وهى مازالت قابعة فى مكانها الأخير ولم تكن قد تخلصت من اسارها بعد • واندفعت جماعات من الهنود فى القوارب للمساعدة على تفريغ حمولة السفينة على الشاطىء . ودبروا مأوى مسقوفا بسعف النخيل • وأشرف الملك جواكاناجارى

بنفسه على هذه العملية • ولقد كان الهنود متحمسين للمساعدة كما عملوا بمنتهى الجد والنشاط حتى انهم انتشلوا حمولة السفينة كلها بدون فقد أى شيء •

وقد تركت هذه المساعدة السريعة والكريمة أعمق الأثر فى نفس قائد الأسطول ، كما كان لها تأثير فى مسلكه فى المستقبل •

كان لتحطيم السفينة نتيجة سريعة وبعيدة الأثر؛ فعندما اضطر كولمبس الى الذهاب الى قرية جواكاناجارى رأى لأول مرة النســـاء الهنديات • وذهل عندما اكتشف أنهن يلبسن أساور ثقيلة من معدن أصفر حول أذرعتهن ومعاصم أرجلهن • انه الذهب !! وكانت قلائد بعضهن مصنوعة بطريقة غريبة والدبابيس المعلقة فى أنوف الأخريات كانت متقنة الصنع•وأثار هذا الاكتشاف بين كل رجال السفينة أشد حالات الاضطراب • فهاهنا أخيرا توجد كنوز كاثاى الموعودة !

وعندما واجهت الحقيقة جواكاناجارى تصرف كما يتصرف الطفل عندما يضبط متلبسا بالكذب • فتظاهر بأنه لم يفهم سؤال كولمبس عن الذهب • وبعد أن اعترف بوجود الكثـــير من الذهب المخبأ وعد بمبادلته بحلى الاسبان ومصوغاتهم (الزائفة) • ولقد كانت هناك ــ كما قال ــ مناجم غنية فوق الجبال المرتفعة مليئة بالكثير من الذهب مما لا تستطيع كل السفن فى العالم أن تنقله •

وحيث يئس قائد الأسطول لفقده سانتا ماريا بدا الآن أن حظه السيىء قد تحول الى خبطة من خبطات الحظ العجيب • حقا ، ان سفينته سوف تترك حطامها على رمال هسبانيولا ، ولكن ها هى ذى أرض ذات ثروة لا يمكن تصـــورها ، تفوق ماكان يحلم به طوال حياته •

وفى الصباح التالى بعد الخدمة الدينية المقدسة،أخبر كريستوفر كولمبس رجاله أنه قد قرر تأسيس أول مستعمرة فى العالم الجديد •

وقال لايضاح ذلك : « يجب أن يكون واضحا لكم جميعا أنه من المستحيل بالنسبة لنينا أن تحمل بحـــارة سفينتين • انى أطلب متطوعين لبناء قلعة وسوف تترك المئونة هنا ــ كافيـــة لمدة سنة ــ وسوف أحمل بشرى اكتشافنا الى أصحاب الجلالة ثم أعود بأسطول كبير لاعادتكم الى الوطن • من منكم سيتطوع أولا ؟ »

ارتفعت أيد كثيرة حتى انه كان من الصعب الاختيار من بينها • واستقر الأمر علىاختيار تسعة وثلاثين رجلا: وهم جماعة صعبة المراس يشتعل فى قلوبهم حب المغامرة والجشع للذهب • أو ربما ــ وقد تذكروا العمل المرهق والمشقة التى ستكون من نصيبهم اذا ماعادوا الى أوربا ــ فضل الرجال حياة البدائيين البسيطة فى أبهى حللها • واختار قائد الأسطول من بينهم صانع براميل ، ونجارا ، وطبيبا ، وحائك ثياب ، ومرمم سفن وقائد مدفعية ليتعهد المدافع الصغيرة •

وعين دييجو دى اراندا قائدا عاما •

وكانت مهمة هذه الجماعة جمع الذهب والتوابل ، واكتشاف المناجم والغابات التى تنتج هذه الكنوز ، حتى انه كان يلزم تجهيز مخزن فسيح لحين عودة قائد الأسطول •

بدأ العمل فى بناء القلعة فى الحال • وتكاتفت الأيدى فى قطع الأشجار • ودوى الهواء بطرقات الفؤوس والمطارق • وقام الهنـــود ــ برغبتهم ــ بعمل شاق •

شيد حصن خشبى كبـــير فى أقل من أسبوع ، وكان محاطا بحاجز من الشجيرات القوية المترابطة • وجردت سانتا ماريا من أثاثها

لجعل الحصن مريحا • وبرزت فوهات مدافع السفينة ـ كبيرها وصغيرها ـ من فجوات فوق سطح الحصن • وخزنت فى أماكن مغلقة بالأقفال براميل كبيرة من اللحم المملح ، والسمك المجفف ، ولحم الخنزير المقدد ، وشحوم الحيوانات والزيت والنبيذ • ورفع علم المسيحية على المستعمرة تحت اسم ـ لانافيداد ـ (أى يوم الميلاد) تكريما لليوم الذى شهد كارثة رسو كولمبس على هذا الشاطىء الموحش •

بحلول اليوم الثانى من يناير سنة ١٤٩٣ شعر قائد الأسطول أنه يستطيع أن يترك هذه الجماعة الصغيرة وراءه • وراوده الخوف من أن مارتن بنزون قد يسبقه فى الوصول الى اسبانيا ، وأن يدعى لنفسه مكافآت ومجد الاكتشاف ، بل وأن يشوه سمعة وشخصية القائد •

اعتقد كولمبس اعتقادا راسخا أن هسبانيولا هى جزيرة سيبانجو (اليابان) التى تقع فيما وراءها بلاد الخان الأعظم الأسطورية • وكان مخزن الذهب المدهش الذى استبدله ـ جواكاناجارى بالحلى الزائف برهانا مقنعا على ذلك • وحتى اذا لم تكتشف بعد القصور ذات السقوف الذهبية ، والفيلة ذات الأنياب المطعمة بالذهب ولآلىء وياقوت ماركوبولو ، فقد كان كولمبس مقتنعا أنه على وشك امتلاكها • ويجب أن يعود الى اسبانيا ، ثم يقفل راجعا الى هسبانيولا بأسطول مكون من عشرين سفينة • ولسوف ينهمر الذهب على سادته ، وبذلك يفى بأسخى وعد •

ولزيادة التأكد من سلامة رجاله الذين خلفهم وراءه ، كان من الضرورى أن يؤثر فى جواكاناجارى باظهار القوة • ولما كان الهنود لم يسمعوا طلقة بندقية مطلقا ، فقد أمر قائد الأسطول رجاله بأن يطلقوا عدة طلقات من مدافع الحصن على هيكل سانتا ماريا •

انبطح الهنود على الأرض عند أول قذيفة من اللهب والرعد ، وكأن البرق دهمهم ، وأمسكوا بألواح السفينة الكبيرة الحجم ورفعوها الى أعلى كأنها قشات فى مهب الريح · هاهىذى أعجوبة أخرى من أعاجيب الرجل الأبيض ! ثم شـكل الاسبان صفوفا على الشاطىء ودخلوا فى معركة صورية بالأقواس والبنادق · مما أوقع الهنود فى صمت من الخوف ·

واجه كولمبس رجاله لآخر مرة · وكان صوته جادا عندما ألقى عليهم آخر أوامره قائلا : « يجب أن تتذكروا أن هؤلاء الهنود ، مع أنهم يبدون همجا ، الا أنهم من رعايا التاج الاسـبانى مثلكم أنتم أنفسكم ··· فيجب أن تعاملوهم بكل رقة · وأطيعوا قائدكم الذى يعمل بدلا منى · وانى أستأذنكم فى الرحيل معتزا برسالتكم المجيدة التى على كل منكم أن يتمها · ستكتب أسماؤكم فى سجل المجد · بركة الله عليكم جميعا » ·

كان القارب الطويل فى الانتظار على حافة الماء · وشدت نينا حبالها · وضم جواكاناجارى كولمبس الى صدره وهو يحك أنفه فى خد قائد الأسطول حسب طريقة الوداع التى يأخذ بها شعبه ·

وانفجر الحشد الكثيف من الهنـود الذى كان على الشاطىء باكيا · وارتسم الجد والوقار على وجـوه الرجال التسعة والثلاثين الذين كان عليهم البقاء فى لانافيداد ·

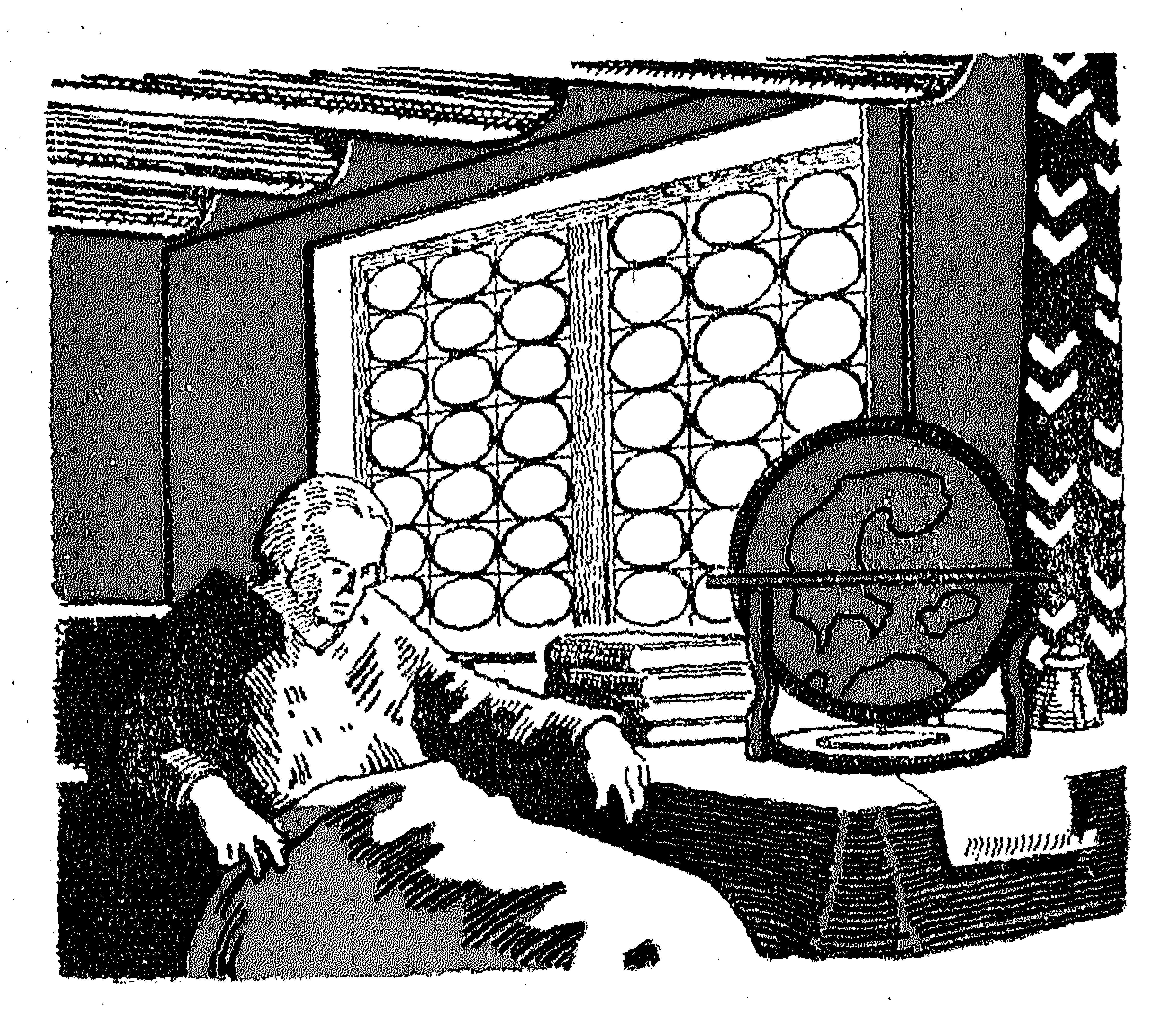
وفى هذه اللحظة فكر أولئك الذين كانوا يتوقون للبقاء فى أوطانهم فى أشهر الانتظار الطويلة التى يجب أن تنقضى قبل أن يروا أحبابهم مرة أخرى ، أو أن يسمعوا ضحك أطفالهم · وفى هذه اللحظة كيف كانوا سيفكرون لو علموا أن قائد الأسطول سيصدق وعده

وسيعود بعد عشرة أشهر الى هسبانيولا وسيجد رماد السياج الخشبى، وبعض الأجساد المشوهة ، وكومة من الملابس الممزقة علامة على موقع لانافيداد ·

انكب البحارة على المجاديف · ومرق القارب الطويل عبر الميناء · مخلفا وراءه هيـــكل سانتا ماريا اللامع ، متجها الى السفينة المهيأة للاقلاع ، ولوح كريستوفر كولمبس بيده ، وهو واقف فى مؤخرة السفينة ، ليودع رجاله ، والعالم الجديد ، الوداع الأخير ·

الفصل التاسع

آخر رحلة طويلة



تساقط المطر بغزارة من حافة سقوف المنازل ، واتخذ مجاريه عبر شوارع بلد الوليد المرصوفة بالحجارة المستديرة • وبدت اسبانيا كلها تحت السماء الداكنة وكأنها تحبس أنفاسها وهى فى حالة انتظار •

وفى أحد أروقة دير الفرنسيسكان ، فى حجرة فقيرة الأثاث ، أخذ شاب حديث السن يلهب نار الفحم المتقدة ليجرد الحجرة من برودتها •

وجلس بجوار النار شبح طويل نحيل بلا حراك مغلق العينين • انقبض قلب الشـــاب • فقد مضت خمسة عشر عاما منـــذ تسلق جبال بالوس مع أبيه بحثا عن مأوى فى لارابيدا ، وكان ولدا فى الثامنة من عمره حينذاك • وخلال هذه السنوات حدث الكثير للرجل الجالس بجوار النار ، وهو الآن مريض ، محطم ، متقدم فى السن قبل الأوان • وأراد دييجو أن يصيح محتجا على الاجحاف غير الانسانى الذى هبط بهذا الرجل ، كنسر رائع ، الى الأرض • كم تهدم قوام كولمبس الذى كان يوما فى غاية القوة • وظلت العيون فحسب ــ دون أن ينتابها أى تغيير ــ مليئة بالحيوية وغير مستقرة •

« وهمس كولمبس قائلا : يابنى » •

فأجابه دييجو : « نعم ياأبى ، ماذا تريد ؟ »

« هل كتبت الخطاب ؟ »

« انى على وشك أن أبدأ فى ذلك ، ياأبى » •

وغمغم الصوت قائلا : « أسرع ••• أريد أن أعرف أنه قد سلم قبل •• » •

« قبل ماذا ياأبى ؟ »

التوى ركن شفتى قائد الأسطول وقال : « قبل أن أبحر مرة أخرى ••• »

وقف دييجو كأنه فى حلم يلقى بنظره على هذا الجسد المهدم الساكن الذى يبتسم فى منتهى الضعف • فيم كان يفكر كريستوفر كولمبس ؟ فى مناظر طوتها السنون : فى ساحل جنوا المشمس ، وفى الجزر الهندية الساحرة ، وفى تهليل البحارة بصوتهم الأجوف ، وفى بريق الذهب الزائف •••؟

جلس دييجو على منضدة بجوار النافذة متثاقلا ، كمن ليست له رغبة فى مثل هذا العمل ، وتناول ريشة • وتداخلت الكلمات على صفحة الرق أمام ناظريه وهو يكتب :

٢٠ من مايو سنة ١٥٠٦ ـ بلد الوليد ـ أسبانيا •
الى الأب جوان بيريز ، رئيس دير سيدتنا لارابيدا •

سيدى المبجل •

لقد أحزن أبى طويلا أن حظه فى السنين الأخيرة قد منعه من الاتصال بكم • لأنك أنت الشخص الوحيد الذى يعتبره صديقا مجربا وحقيقيا لا تخذل أحدا • وقد طلب الى أن أطلعكم على حقيقة ما حل به، لأن أعداءه كثيرون وأكاذيبهم قد شوهت الحقيقة •

وأخشى أن أطول رحلاته مازالت أمامه ، وهو لا ينتظر سوى الاستدعاء لكى يبحر • وانى لا أعلم ماذا يمكن مرضه أن يكون ، ولكن قلبه يدمى حتى الموت • فقد نشأ فقيرا ، وبلغ سمت المجد الأرضى ، والآن يتوارى فى الخسوف • ويرى الملك فرديناند أنه من غير المناسب أن يفى بما وعد بالكلام وبالرسائل المختومة •

وترقد مولاتنا الملكة فى قبرها ، وهى الصديق الوحيد لأبى فى البلاط •

• وأصبح قائد الأسطول كما كان فى البداية : صوتا صارخا فى البرية ، وسائلا متعبا على أبواب الملوك • ولكنى أتوقع •••

ولعلك تذكر ربيع ١٤٩٣ الحاسم ، عندما أذهل الكلام عن وجود هسبانيولا العالم لأول مرة • ولقد سمعت بدون شك عن خيانة مارتن بنزون وكيف سلك طريقه عائدا الى اسبانيا وأرسل كلمة الى أصحاب الجلالة أن اكتشافات العالم الجديد تخصه وحده • وبفضل الله وصل قائد الأسطول بنفسه غرناطة قبله بيوم أو يومين وأطلع سادتنا على الحقيقة • ومات بنزون بعد ذلك بقليل ، فى مرارة وخجل •

لم يكرم انسان مطلقا أكثر مما كرم أبى ! فقد هتفوا له ، وباركوه ، وهللوا له لاكتشافه العظيم • وركبت بجواره الى برشلونة، حيث البلاط الملكى ، عبر جماهير سعيدة كانت تقذفنا بالأزهار عند مرورنا • ياله من موكب !! كانت قافلة من البغال تحمل المعروضات المجلوبة من العالم الجديد : أقفاصا مليئة بالطيور ذات الريش الرائع الألوان لم ير لها مثيل قط • وانى لأذكر قفص العظاءات « السحالى » الأمريكية (اجواناس) وهى العظاءات الكبيرة الحجم التى انتزعت صيحات الرعب من أفواه المتفرجين •

وفرقة الهنود ـ التى لم يبق منها حيا سوى ستة ـ تسير عبر الشوارع برشاقة الحيوانات • وقد طلى البعض منهم وجوههم وأخذوا يلوحون برماحهم وأقواسهم • وكانوا جميعا يرتدون لباس الرأس الخاص بشعبهم ذا الريش والتزاويق الذهبية • وقبعت الببغاوات على معاصمهم وكأنها الصقور •

ثم جاء دور البحارة والملاحين ـ وهم نفس الرجال الذين حاربوا وعربدوا وتمردوا فى هسبانيولا ـ ولكنهم الآن يمرحون كالعرائس لعودتهم الى أرض الوطن • وتبعهم قائد الأسطول نفسه راكبا فى

فخامة ، منتصبا على السرج مرتديا صديرية قرمزية اللون مشبكة بالذهب ، لقد كان ذا هيئة ملكية ، وسيدا حقيقيا • وركب بجواره أكثر أولاد المملكة فخرا ـ متسربلا فى قماش من الفضة وقبعة ذات ريشة مما يلائم وصيف أحد الأمراء •

كان الوقت منتصف أبريل والهواء يشبه نبيذ ملقا • وأقيم العرش الملكى فى سرادق من الحرير ، وكان أصحاب الجلالة ينتظرون حضور الرجل العظيم فى حرارة شمس هذا اليوم المجيد • وكان كل البلاط حاضرا : النبلاء وعقيلاتهم ، وفرسان سانتياجو وكلاترافا ، وكردينال اسبانيا فى ملابسه الأرجوانية اللون من رأسه الى أخمص قدمه ، وعدو أبى القديم هرناندو دى تلافيرا •

مع قرعات الطبول ترجل قائد الأسطول وأسلم اللجام الى السائس • وانجذبت اليه كل الأنظار ، فوقف لحظة طويل القامة ، فى هيئة آمرة ، مرفوع الهامة • وتذوق طعم الانتصار فى تلك الساعة• هاهىذى لحظة ذات دلالة فائقة فى تاريخ العالم ، وكان هو يعلم ذلك .

وبدون مقدمات أتى الملك والملكة بحركة ونهضا من كراسى الحكم لاستقبال الضيف المكرم • ولم يتذكر أكبر رجال البلاط سنا مثل هذه التحية المذهلة • وأسرع قائد الأسطول فى خطوه • وركع ليقبل الأيدى الممتدة فى ترحيب رقيق • ورفعته الملكة نفسها من ركعته •

وقالت مبتسمة : «ستجلس بجوارنا أيها السيد قائد الأسطول• قص علينا نبأ مغامرتك العظيمة » •

أزالت كلمات الملكة الكلفة التى كان يحس بها كولمبس فى داخله وجعلت الكلمات تتدفق من فيه • وقال :

لعله مما يسر جلالتك قبل أن أتحدث عن امبراطورية لا تزال ثروتها موضع التخمين ، أن أؤكد لك أنى لم أعد صفر اليدين •

والكنوز التى ألقيها تحت قدميك ان هى الا عينات ودلائل على المخزن الهائل الذى ينتظر السفن التى تجلبها الى اسبانيا ·

استدعى كولمبس قافلة الحمالين وما يحملونه من الغنائم · لقد كانوا يحملون التبر على هيئة كتل وركائز ، والأقنعة البدائية ذات الزينة الذهبية ، وسلال الصمغ والتوابل ، « وبالات » القطن الخام ، وألواحا من خشب غير معروف · وأخيرا جاء الهنود المتكبرون أنفسهم بجلودهم ذات اللون الذهبى · فحنوا جباههم على البســـاط امتثالا لسادتهم الجدد ·

وعندما نهض الهنود وتحركوا الى أحد جوانب السرادق ، تقدم أحدهم وكان من الشبان ، عاريا الا من قطعة قماش حول وسطه ، يحمل على أحد معصميه ببغاء ذات ريش زاهى اللون ، وتحرك فى اتجاه العرش وركع الشاب فى رشاقة القط · ومال برأسه الى جوار رأس الببغاء ولاطفه فى همس · ورفع الطائر عينيه البراقتين الى أعلى وفتح منقاره لينطق بحديث واضح ولكنه أجش :

« أطال الله عمر الملك فرديناند » ·

« أطال الله عمر ايزابللا العظيمة » ·

صدرت عن المجتمعين صيحة تعجب · طائر ذو قدرة انسانية على الكلام ! ياللعجب ! لم ير أحدهم مثل هذا أبدا · وصدرت عن الصبى الهندى صيحة انتصار عندما تكلم الطائر مرة أخرى قائلا :

« أطال الله عمر كريستوفر كولمبس قائد أسطول المحيطات ! »

وصاح الملك قائلا : « والقديس جيمس ! يالها من عجائب ؟ »

وقال قائد الأسطول مؤكدا لسيده : ان هى الا توافه ياصاحب الجلالة ، انى أتيت اليـــك بالسيطرة على منطقة أوســـع من مملكة اسبانيا كلها ! ان ملايين البشر ، الذين لم يشك فى وجودهم أحد ، قد أصبحوا رعاياك • وان تحويلهم للمسيحية سيكافئكم ياأصحاب الجلالة بنعمة دنيوية وأبدية » •

وصاحت الملكة : « لقد حققت النصر ياكولمبس أكثر من أعز أمانينا • ماأسعد اليوم الذى رهنت فيه عقدى لمساعدتك ! »

ورد كولمبس قائلا : « لقد سمح لى أن أفعل مالا يجرؤ عليه أى انسان فانى أرجو ياصاحبة الجلالة أن تقام الاحتفالات المقدسة • ولتزين الكنائس بالأغصان الخضراء والورود ، حتى يحل ابتهاج الله على الأرض ، وعلى انتشار مملكته بين الأمم الوثنية ! »

دوت كلمات كولمبس فى هـــدأة السكون ، وعندما انتهى من حديثه حنى رأسه الأشيب وخر راكعا وركع بجواره الملك والملكة فى حين شرعت الجوقة الملكية فى ترديد نشيد : « نشكرك أيها الاله العلى القدير » بنغم يعبر عن الشعور بالانتصار •

كان كريستوفر كولمبس بطل الساعة • ونسى الناس فى هـــذه اللحظة ماكانوا يتذكرونه فيما مضى ، وكان عليهم أن يتذكروه مرة أخرى : ان قائد الأسطول كان أجنبيا ذا أصل متواضع • ونظروا اليه فى تلك اللحظـــة على أنه رائد امبراطورية ، ورمز القوة والغنى • ياللخسارة ، ما أقصر الوقت الذى سيقضيه مستمتعا بشمس رعايتهم الواهنة !

لم يمتنع عن امتداح كولمبس سوى هيرناندو دى تلافيرا •

وقال الأسقف فيصوت كهرير القط:«لو أنك يادون كريستوفر لم تقم بهذه الرحلة أبدا فانه من المؤكد ، فى أرض اسبانيا هذه ، حيث لا يوجد نقص فى عدد الملاحين الشجعان ، كان سيظهر شخص آخر من الجرأة بحيث يقوم بما قمت به » ٠

ابتسم كولمبس فى وجه عدوه القديم ٠ وبعث بخادم ليحضر له بيضة ٠ ودحرج البيضة على منضدة وقال : « أراهن بألف فلورين ذهبى على أنك ، ياصاحب القداسة ، لا أنت ولا غيرك يستطيع أن يفعل بهذه البيضة ما أستطيعه أنا : أى أن أجعلها تقف معتدلة دون أن تسقط ! »

انتقلت البيضة من يد الى يد بين المجتمعين ، ولكن أحدا منهم بما فى ذلك دى تلافيرا ، لم يستطع أن يجعلها تقف ٠ وعندما عادت الى قائد الأسطول ، أحدث شرخا بها فى قشرتها محدثا قاعدة مسطحة وقفت عليها البيضة بالفعل ٠

وهمس كولمبس قائلا : « هل ترى ياســـيدى الأسقف أن الانسان عندما يخاطر بفعل شىء ما ، يبدو الأمر بعد ذلك لانسان آخر أنه من السهل أن يتمه » ٠

فى خلال الأسابيع التالية قضى قائد الأسطول الوقت الكثـير فى رفقة أصحاب الجلالة ، موضع عنايتهم واطرائهم ٠ وأمروا بأن تصنع له حلة الفرسان النبلاء ، وأن يرسم عليها أسد أراجون وقلعة قشتالة بالطريقة التى يختارها ٠ وتحققت كل مطالبه ٠ انه لم يصبح « دون » ، ونائب الملك وحاكم كل الجزر التى من اكتشافه فحسب، بل أصبح الآن قائدا عاما لأسطول مكون من سبع عشرة سفينة وثلاث ناقلات جنود ٠ وتجمع تحت امرته جيش مكون من ألف وخمسمائة

رجل ــ بحارة وجنود وعمال مناجم وفنيين مما كان ضروريا لتأسيس مستعمرة •

وعندما رحل من برشلونة فى نهاية مايو يصحبه كل رجال البلاط الملكى ، كان كريستوفر كولمبس قد أصبح من أقوى رجال اسبانيا • ولكنه أصبح الآن لا يتحمل عبء المسئولية كلها ؛ اذ كان عليه أن يقتسمها مع فونسيكا رئيس المكتب الاستعمارى الذى عين حديثا • وما دامت الأداة الحكومية قد أخذت تعمل ، فان وظيفة قائد الأسطول أصبحت تقتصر على عمل اكتشافات جديدة • ولم يمض سوى وقت قصير بعد ذلك حتى جاءت اللحظة التى أمكن فيها الاستغناء عنه.

ما أكبر الاختلاف بين الرحلة الأولى وهذه الرحلة الثانية ! فبدل رشوة الرجال أو ارغامهم على خدمة قائد الأسطول كانت العروض المقدمة أكثر مما أمكن قبوله • وفقد بحر الظلمات تأثيره المرعب لأنه تقع فيما وراء حدوده الغربيـــة أرض تنتشر فيها السبائك الذهبية كانتشار الحصى • وبدلا من السفن الثـــلاث فى الرحلة الأولى كانت هناك السفن الضخمة وهى أفخم سفن الأسطول الاسبانى • وجاء بارتليميو أخو كولمبس الأكبر ، الذى لم يكن قد رآه لعدة سنين من جنوا ليلحق بالبعثة •

أبحر الأسطول وقد عقدوا عليه الآمال الكبار • وعند جوميرا ، فى جزر كنارى ، أنزلت الى الشاطىء حمولة فى غاية الأهمية : ماشية وخراف وماعز وخنازير وكلاب حراسة وخيل وبغال وحمير • وكان المرفأ التالى المقصود هو لانافيراد فى هسبانيولا •

وبحلول الخامس من نوفمـــبر كانوا قد عبروا بحر الظلمات بسلام ، وبدت فى الأفق جزيرة جديدة • ورفع كولمبس عليها علم المسيحية باسم دومينيكا ــ أى « يوم الرب » ــ لأنهم لمحوها فى فجر



يوم أحد • وهنا اكتشف الموز لأول مرة ، واكتشف الاسبان أن طعمه لذيذ • وهنا أيضا واجهوا لأول مرة « الكاريبس » أى أكلة اللحوم البشرية ذوى السمعة السيئة ، والذين تحدث عنهم هنود جواناهانى فى همس •

بدت قراهم مهجورة لأول وهلة ، ولكن رجال قائد الأسطول كانوا يشعرون فى قلق أنهم مراقبون من وراء المكامن • وكانت تتدلى عناقيد من الجماجم البشرية على الأعمدة الخارجيـــة لأبواب المنازل • وعندما تسلل البحارة خلال المنازل المهجورة ، فاجأهم منظر يصيب أقوى القلوب بالرعدة : عظام نخرة وأجزاء من أعضاء إنسانية تشوى فى أسياخ فوق الجمر المتقد •

عم الشعور بالارتياح عندما أصدر قائد الأسطول أمره بالاقلاع• واتخذ الأسطول وجهته فى الحال صوب هسبانيولا •

وظهر الطرف الشرقى لهذه الجزيرة للعيان بعد ذلك بيومين • وتهادى الأسطول الضـــخم متخذا مرساه بعيدا عن موقع المستعمرة الأولى فى العالم الجديد • وكانت السفن من الضخامة بحيث انها لم تستطع دخول الخليج •

بدا غريبا أن الشاطىء الذى كان يعج بالأهلين ، منــــذ عشرة أشهر فحسب ، قد أصبح خاويا من البشر • لم ير أحد من رجال القلعة • فأطلق مدفعان عند صدور أمر قائد الأسطول بذلك • ولم يكن لذلك اجابة ، بل خيم صمت ينذر بالشر كغلاف أحاط بالأرض الخضراء لماذا لم ترد حامية القلعة التحيــــة ؟ وانتاب الجميع شعور بالتوجس •

أدرك قائد الأسطول فى تلك اللحظة ماحدث ، وبذل جهدا فى اخفاء مخاوفه عن الرجال • وأخيرا برز قارب صغير واحد من الشاطىء يحمل خمسة هنود وجلين •

وعنـــدما صعدوا على ظهر السفينة أخبروا قائد الأسطول أن ملكهم جواكاناجارى قد جرحه الأعداء ـ أصحاب مناجم الذهب • وأعلن الهنود كذلك أن حامية القلعة الاسبانية قد أبيدت • فلم تعد المستعمرة سوى أثر محترق •

وكم تغيرت اتجاهات الهنود أنفسهم ! فقد انسحبوا خائفين مكتئبين مختفين عن الأنظار • وعندما نقل كولمبس بالقارب الى الشاطئ ليبحث عن الملك ، استشعر المرض لرؤيته بقايا القلعة المحترقة •

واستطاع أن يتخيل ماقد حدث بعد رحيله من هسبانيولا ، ولكن جواكاناجارى أكد فى نفسه أسوأ الشكوك •

ووجد الملك الهندى الذى جرح بالفعل ، راقدا فى كوخ غير متين البناء محاطا بحفنة من التابعين •

بكى الزعيم بحرارة عندما ضغط على يد قائد الأسطول • وقال فى صوت منكسر : « لقد حطم الطمع والغيرة رجالك أيها السيد قائد الأسطول • لقد حولت معاملتهم الوحشية شعبى الى أعداء • وكان رجالك يبحثون عن الذهب فى اقليم الزعيم كوانابو فقتلوا جميعا • وتشاجر الذين فى القلعة فيما بينهم • ولم يوجـــد أحـــد ليحمى لانافيراد من كوانابو عندما جاء » •

اختار كريستوفر كولمبس بقلب مثقل موقعا لمستعمرة ثانية • وصمم على ألا يوفر لرجاله وقت فراغ ليفكروا فى مصـــير اخوتهم المؤسف • وبدأ العمل فى جد • وأفرغت الشحنة ، وشيدت الحظائر، وقطعت الأشجار ، ووضع أساس كنيسة وزرع القمح والشوفان وغرست شتلات الزيتون والليمون والبرتقال التى كانوا قد تعهدوها بعناية فى أثناء الرحلة الطويلة •

تقدم العمل بقوة حتى ان بناء الكنيسة استكمل فى السابع من نوفمبر وافتتحت باحتفال مهيب •

دوى صوت جرس نحاسى معلق ب « سقالة » مقامة بجوار فناء الكنيسة بين جنبات الغابة ــ ويبدوأن هذا الصوت كان يطرب الهنود الذين بقوا قريبا من المستعمرة الاسبانية • وفى الليل ، كان المتوحش كوانابو ومحاربوه يزحفون من فوق الجبال ليستمعوا وهم فى حيرة الى الصوت السحرى • لقد قام هذا الجرس بدور لا يقوم به سواه •••

اكتشف رجال المناجم فى النهر القريب دلائل كثيرة على وجود الذهب الذى كان من المؤكد أن مصادره تمتد حتى منطقة كوانابو • وتمرد الاسبان على العمل المرهق فى بناء المستعمرة المسماة ايزابللا، وقد توزعت مشاعرهم بين الطمع والخوف من القبيلة المتوحشة التى قتلت زملاءهم • انهم لم يخرجوا الىٌ العالم الجديد لكى يكدحوا كالأرقاء تحت الشمس • وليعهد الى الهنود أنفسهم بمثل هذه الأعمال الشائنة حتى اذا استدعى الأمر استعمال السوط • واستمع كولمبس الى هذه الهمهمة فى تجهم ، وأدرك أن يوم الحساب قد اقترب •

ولكن الهنــــود ــ وقد أغرتهم بالذهاب الى المستعمرة الوعود بالخرز وأجراس الصقور ــ لم يعودوا مطيعين فى تواضع فى حضرة « أبناء السماء » ، وأدرك أقل الرجال قدرة على الفهم أن الحرب كانت تلوح من وراء الســـتار • وكان اسراع قائد الأسطول الى تحصين المستعمرة دليلا كافيا على هذا الأمر •

وعند هـــذا الحد ، بعث رئيس الأسطول باثنتى عشرة سفينة عائدة الى اسبانيا لاحضار امدادات جديدة ، وأرسل معها عشرة هنود ليتدربوا كمترجمين وليتحولوا الى المسيحية• وكان كولمبس نافد الصبر لرغبته فى مواصلة اكتشافاته • فقد كان عليه أن يستكشف مملكة الخان الأعظم •

وبالرغم من شعور العداء الذى كان يحيط به، فقد أقنع كولمبس نفسه بأن « مستعمرة » ايزابللا قد حصنت بما فيه الكفاية ضد الهجوم ، حتى انه كان يستطيع أن يترك بدرو مارجريت ، وهو من أقدر ملازميه ، فى مركز القيادة · ولقد حذر مارجريت قبل كل شىء بأن يعمل على مسالمة الهنود ·

وفى الرابع والعشرين من ابريل أبحر قائد الأسطول غربا بثلاث سفن ·

اتخذ الأسطول الصغير طريقه مارا بجزيرة بعد أخرى من جزر الانتيل الصغرى · ولكن مملكة الخان لم يعثر لها على أثر · وكانت المكافأة الوحيدة هى اكتشاف نبات الذرة ·

فجمعت حبوب هذا النبات الهندى فى الحال لتنقل الى أوربا · وفى هذه الرحلة أيضا أصيب كولمبس لأول مرة بالحمى التى ابتلى بها حتى آخر أيامه وعجلت بنهايته · أما مابقى من الأمور ، فان مزاج بحارته المتقلب وارهاقهم اضطراه أخيرا الى الكف عن البحث · وعاد الى هسبانيولا على غير رغبته ·

وخلال غيبته القصيرة وجد أن الهنود فى كل مكان قد حملوا السلاح · فبدلا من أن يسالمهم بدرو مارجريت حولتهم أعماله الى أعداء شديدى البأس · ولكى يتمم هذه الكارثة ــ بدلا من مواجهة قائده العام ــ استولى مارجريت على احدى السفن ورحل الى اسبانيا ·

وهناك ، أمام الملك والملكة ، ألقى اللوم فيما وصلت اليه الأحوال فى هسبانيولا ــ على كاهل قائد الأسطول ·

كان هذا هو الموقف الذى واجه رجلا نصف ميت تقض مضجعه القرحة المعوية ·

وفى الحال عين كولمبس أخاه برتلوميو ــ ذلك الرجل الممتاز ــ حاكما لمستعمرة ايزابللا ٠

ولم يكن لكولمبس سوى مرءوس واحد شعر بأنه يمكنه أن يثق به :

شاب نبيل يدعى الونزو دى هوجيدا ٠ وعندما تحقق من أنه لا سلام بين الاسبان والهنود حتى يؤسر الملك كوانابو ؛ فقد بعث بهوجيدا الى الجبال لتحقيق هذا الهدف الجرىء ٠

وأيا ماكانت النقائص التى بدت بعد ذلك فى خلق الونزو دى هوجيدا فان الجبن لم يكن من بينها ؛ فقد أبدى مهارته فى الحروب ضد أعداء أشد بأسا من الهنود غير المدربين ٠ وكان ملما بكل خدع الحرب ٠ ورحل فى شجاعة على رأس عشرة رجال فقط الى قلعة الجبل حيث حشد كوانابو آلاف المحاربين ، وبعد رحلة استغرقت حوالى ثلاثة أيام ، سار الاسبان فى ثقة الى أقوى معاقل الملك البدائى ٠ وفى الواقع أن خدعة هوجيدا كانت من الجرأة بحيث ان المناورة عقدت لسان كوانابو ورجاله « الكاكيك » ٠

فان يتجول الاسبان بينهم وكأنهم ضيوف مدعوون ألقى فى روع الهنود انهم يمتلكون قوى خفية هائلة ٠٠٠ لقد لعب هوجيدا بأوراقه جيدا وأعلن أن قائد الأسطول أدرك أن كوانابو هو أغنى زعيم قبلى فى هسبانيولا ٠ ولكى يكتسب صداقته وينشر السلام قدم كولمبس أثمن هدية فى العالم : جرس كنيسة ايزابللا البرونزى ٠

التمعت عيون كوانابو ٠ جرس الكنيسة ! ملك خاص له !! انه يمكنه أن يعلقه فى دعامة سقف مسكنه ، وأن يستمع الى صوته مع كل هبة ريح ٠ واتخذ قراره فى الحال وقال فى تؤدة : « فى مقابل

الجرس الناطق أتعهد بصداقتى لرجال اسبانيا • وليكن السلام بيننا ! »

فأجابه هوجيدا فى رقة : « لقد اخترت بحكمة أيها الملك •ولكن الجرس ذو وزن هائل ، ولا يوجد فى ايزابللا كلها عدد كاف من الرجال ليحملوه الى أعالى هذه الجبال • فيجب على كوانابو نفسه أن يحضر رجالا ليأتوا بالجرس اذا كان يرغب فيه » •

وأعلن الملك : « اننا سنبدأ فورا » •

كان موكبا غريبا ذلك الذى سار فى صفوف فى حركة متئدة خارجا من المعقل الهندى : الونزو هوجيدا ورجاله العشرة يمتطون صهوات خيل سريعة ، ومن خلفهم يسير خمسة آلاف محارب حفاة • وسار كوانابو فى كبرياء بجوار حصان هوجيدا ، فان مكانه بجوار الزعيم الاسبانى • وكانت تتدلى من مؤخرة سرج هوجيدا سلسلة من الفضة البراقة تعلقت بها بعض الأصفاد •

وتساءل كوانابو عن الغرض من السلسلة • فقيل له انها طلسم سحرى يستمد قوته من السماء ، فأدرك الهندى فى الحال أن لكل زعيم تعويذته الخاصة • وكانت هذه السلسلة تعويذة الرجل الابيض.

لم يستطع كوانابو أن يرفع بصره عن السلسلة اللامعة وقد أذهله شكلها •

وتساءل فى ضراعة عما اذا كان من المسموح له أن يلمسها • ولكن هوجيدا لم يبد استعداده لذلك • فان مثل هذه التعويذة لا يمسها الا الملوك ••• وحتى هذه اللحظة كان كوانابو لم يزل نبيلا فى وطنه وصديقا لاسبانيا ••• نعم ، يجب أن يسمح له بأن يلمس السلسلة وحتى أن يحيط بها عنقه للحظة •

توقف الركب عند الظهر فى واد متسع • واستقر رأى هوجيدا. انها خبطة جريئة اما أن تؤدى الى انتصار الاسبان واما الى انهيارهم • ولف هوجيدا بنفسه السلاسل حول معصمى الملك الهندى • وأغلقت الأقفال •

وقال هوجيدا مبتسما : سوف تركب معى على حصانى حتى يراك كل رجالك وأنت تحمل التعويذة السحرية •

حملت الأيدى المستعدة كوانابو على السرج حيث أمسك به هوجيدا بقوة • ومر الفرسان متئدين بين صفوف المحاربين فى حركة دائرية متجهين دائما الى الناحية الأخرى • وامتلأ قلب الرجل البدائى رهبة لهذه العلامة التى تدل على تقدير الرجل الأبيض : أن يحمل زعيمهم التعويذة السحرية • فخروا على الأرض ساجدين •

صاح هوجيدا وغمز مطيته بمهمازه • فقفز الحصان الى الأمام فى السهل الواسع • وقرقعت بأقى الخيل فى اثره • وأفاق الهنود منزعجين وقد فهموا الخدعة • لقد أسر زعيمهم • وانطلقت شياطين الشر من عقالها • ولكن لم يستطع أى هندى أى يلاحق تلك الخيل المسرعة وقصرت السهام عن الاصابة • وأسرع الاسبان يسابقون الريح حاملين أسيرهم عبر السهل والجبل من أجل سلامة ايزابللا •

وحد أسر الزعيم الهندى كل قبائل هسبانيولا فى الحرب ضد الغزاة •

واجتاح المستعمرة الصغيرة آلاف من الأقوياء الذين كانوا يصرخون كالشياطين المنطلقة من الظلام • ولكن حرابهم وأقواسهم لم تكن لتضارع المدافع والبنادق التى كانت تقذف النار والدمار بين صفوفهم • وقبل الهجوم المضاد الذى قام به هوجيدا والخيالة حاملو الرماح استسلم أشجع زعماء القبائل •

وكان مما ساعد الاسبان أيضا تلك الكلاب الضخمة الضارية التى كانت تقتفى أثر الهاربين العراة وكانت توقعهم أرضا وتمزقهم اربا • ولم تكن المسألة سوى مسألة وقت ••• فسرعان ما سيصبح الاسبان حقا سادة هذه الأرض التعسة •

فى أثناء ذلك كان بدرو مارجريت قد حقق هدفه الشرير • غير أن ثقة الملكة ايزابللا لم يمكن زعزعتها بسهولة ، ولكن الملك اقتنع بأن كولمبس غير أهل للتصرف • وزيادة على ذلك فقد حانت الفرصة للتخلص من نائب ملك كان مبالغا فى مطالبه ••• وأرسل الملك لحاكم اجوادو ليحل محل قائد الأسطول •

أسرع كولمبس فى الحال عائدا الى اسبانيا • للاحتجاج على هذا التعيين ، وقد هالته هذه النكسة • وكم كانت فجيعته عندما وجد أن الناس قد فقدوا كل اهتمام بالبلاد التى تقع عبر المحيط • ولم يستقبله هذه المرة أى تكريم أو أى استعراض للنصر • وتركه الملك فرديناند ــ وقد نكث بكل وعوده ــ ينتظر على أبواب البلاط الملكى لأكثر من سنة قبل أن يمنحه ست سفن للقيام برحلة ثالثة مع فريق من البحارة الأشقياء مكون من خمسمائة من خريجى السجون • وزيادة على ذلك صدرت الأوامر للقائد بأن يبقى بعيدا عن هسبانيولا.

وفى هذه الرحلة الثالثة تم اكتشاف البر الأصلى للقارة الأمريكية ــ وهى المنطقة القريبة من مصب نهر الاورينوكو (١) • وكان كولمبس قد أصبح حينئذ محطم الصحة بسبب الحمى ؛ حتى انه كان من الضرورى أن ينصب سريره على سطح مؤخر السفينة حيث يمكنه الاشراف على توجيهها •

---

(١) يقع نهر الاورينوكو فى شمال شرق أمريكا الجنوبية •

(المترجم)

وأدى انكبابه على الخرائط سنوات ، وكذلك أشـــعة الشمس الاستوائية الحارقة ، الى اصابته بمرض غير معروف فى عينيه ، حتى انه كان يقضى الأيام الكثيرة بلا قدرة على الابصار تقريبا •

أثبتت سفنه الثلاث أنها غير صـــالحة للملاحة ، وخرج بحارته الأوغاد بسرعة عن طاعته • وأجبر قائد الأسطول ، مرة أخـــرى ـ لشعوره بالضيق الفظيع ـ أن يلجأ الى هسبانيولا ، مع أنه قد منع من فعل ذلك •

وفى أغسطس ســـنة ١٩٤٨ كانت المستعمرة تضج بالثورة • فقد قتل الحاكم اجوادو ، وتولى بارتلوميو أخو كولمبس مركز القيادة•

وقسمت جماعة من الساخطين المستعمرة الى معسكرين ، وتآمر أحد المستوطنين ـ ويدعى رولدان ـ للاطاحة بكولمبس وأخيه ؛ بأن جمع أكثر الرجال خروجا على القانون • وأصبح قائد الأسطول ـ وقد تخلى عنه التاج ـ خاضعا لوقاحة رولدان وهواه •

سارت الأمور يوما بعد يوم من سيىء الى أسوأ • وكان يسيرا على رولدان أن يكتسب الهنود الى جانبه بوعوده الزائفة ، وبتأكيده لهم أن قائد الأسطول قد عزل ، وأنه قد أصبح هو قائدهم •

وصلت سفينة من أســـبانيا وسط هـــذا الاضطراب وألقت مراسيها على بعد من ايزابللا •

وكانت تحمل مبعوث الملك الجديد،دون فرانشسكو دى بوباديلا الذى أرسل للتحقيق فيما وصلت اليه الأحوال فى هسبانيولا •

وفى الحال قبض على الأمور بيد قوية ؛ فألقى القبض على كولمبس وبارتلوميو وسجنا ووضع فى أيديهما الحديد • وبمثل هذه الطريقة

المخجلة أعيد الى الوطن رجل عظيم ـ كانوا قد هللوا له منذ سنوات قليلة ليواجه سادته ·

استسلم كولمبس لهذا المصير بدون مقاومة ؛ اذ يجب الخضوع لارادة الملك · ولكنه منع هو وباتلوميو من الاتصال أحدهما بالآخر ·

وظلا طوال الرحلة المليئة بالعذاب في حبس انفرادى مثقلين بأغلالهما كالمجرمين العاديين ·

انتشرت الأخبار عن فضيحة قائد الأسطول كالنار المحرقة فى طول البلاد وعرضها · وفزعت أسبانيا كلها · وسرعان مابلغت صيحات الغضب البلاط الملكى فى غرناطة · وفى الحال بعثت الملكة برسالة الى « محسوبها » الذى تدهورت به الحال مع ٢٠٠٠ فلورين ذهبى للملبس الذى يتناسب مع رتبته ·

ولكن عندما مثل قائد الأسطول أمام سادته كان بصره قد ضعف لدرجة أنه تعثر على درج السرادق وانهار عند قدمى ايزابللا ، فامتلأت عيون الملكة الطيبة بالدموع · وحتى فرديناند المتغطرس أقسم أن ينال بوباديلا صاحب الكلمة العليا جزاء وقاحته ·

واستمع الملك والملكة فى عطف الى القصة كلها ، ووعدا باصلاح كل المظالم فى الوقت المناسب ·

وعين الأطباء للعناية بالرجل المنهار · فمنعوه من مجرد التفكير فى رحلة جديدة حتى يستعيد قوته وصحته ·

ولكن هذا لن يكون ؛ فان شعوره بأنه كرس حياته لهدف معين، ذلك الشعور الذى لازم كريستوفر كولمبس دائما ، لم يتركه فى سلام · ومع أن الأعداء كانوا يحدقون باسبانيا فى ذلك الوقت ولم يكن لديها سفن زيادة عن الحاجة ، فقد نجح قائد الأسطول فى اقناع

سادته بأنه على استعداد لأن يبحر مرة أخرى • فوضعت تحت تصرفه فى هذه المرة أربع سفن حقيرة عليها مائة وخمسون رجلا لا يمكن الاعتماد عليهم •

فى التاسع من مايو سنة ١٥٠٢ أبحر كولمبس من قادس فى رحلته الرابعة والأخيرة • وصحبه بارتلوميو ، وكان هذا هو الحدث السعيد الوحيـــد فى المشروع كله كما سنرى • فمنذ البداية كان المشروع نذير شر ؛ اذ كانت السفن تجرى على صفحة الماء وكأنها مصايد فئران ، أما البحارة فقد كانوا أفضل قليلا من المتمردين •

اتخذ قائد الأسطول طريقه ، غير هياب ، الى أمريكا الوسطى حيث يصب نهر الاورينوكو العتيد مياهه فى المحيط • وذلك لأنه سمع اشاعات عن محيط آخر أكثر اتساعا فى أقصى الغرب ، حيث كانت امبراطورية الخان الأكبر الأسطورية تتلألأ كالسراب •

ولكن العواصف العاتية،التى تهب فى عنف من دلتا الاورينوكو، دفعت بالأسطول الصغير الى الخلف • وتجردت السفن من أشرعتها ، وانقصمت صواريها ، واتسعت ثقوبها • فزحفوا الى سواحل جمايكا الموحشة طلبا للأمان حيث كان الهنود البدائيون وحيث استقبلهم وابل من السهام • وأبعد الهنـــود بمشقة عظيمة • وواجه العطش والجوع الرجال المحطمون ••• وتعطلت السفن بصورة تدعو لليأس •

كانت هناك فرصة واحدة ووحيدة للبقاء وهى أن يركب أحدهم قاربا ويعبر المحيط الواسع الذى يفصل جمايكا عن هسبانيولا فى طلب المعونة ؛ وتطوع بارتلوميو لهذا العمل • وراقب كريستوفر كولمبس أخاه بقلب مثقل وهو يبدأ تلك الرحلة الخطرة ، اذ كان يدرك جيدا مدى ضآلة الفرصة للنجاة •

وصل بارتلوميو هسبانيولا ولكن الحاكم جعل الشهور الطويلة تنقضى قبل أن يرسل سفينة لانقاذ الرجال المقضى عليهم بالهلاك •

وعندما سمح الله برحمته لقائد الأسطول أن يصل الى اسبانيا مرة أخرى ، اكتشف أن الملكة ايزابللا ـ صديقه الوحيد ـ قد لاقت ربها ٠

سقطت الريشـــة من أصابع دييجو المخدرة ٠ وتحرك الشبح الهزيل الجالس على الكرسى بجوار النار ٠

« هل أنهيت الخطاب يابنى ٠٠٠؟ »

« لقد انتهى ياأبى » ٠

« أيها الصبى الطيب ، تعال ، تعال هنا حتى أنظر اليك » ٠

نهض دييجو وتحرك الى جانب أبيه وقبض على اليد المتغضنة بين كفيه ٠ ونظرت اليه العيون القلقة وافترت الشفتان النحيلتان عن ابتسامة رقيقة : « أى بنى ، أى بنى المسكين ٠ كم تعلقت بالآمال من أجلك وكم أخفقت اخفاقا مريرا !! »

وبالرغم من الغصة التى فى حلقه صاح دييجو : « أبى ، لا تقل ذلك أبدا ٠ فسيبقى اسمك على لسان الناس مابقى للناس أجل ٠ انك لرجل عظيم » ٠

وهز كولمبس رأسه بهدوء قائلا : « آه ، كلا ياديبجو ٠ انى لست رجلا عظيما ٠ لقد فتحت بابا قد يلجه الآخرون ٠٠٠ انظر ، هناك ضوء فى السماء ٠ لقد مرت العاصفة وسوف تشرق الشمس لنا مرة أخرى » ٠

تحول دييجو رغما عنـــه تجاه النافذة ٠ فوجد أن حزمة من الضوء براقة كالذهب تخترق السماء الملبدة بالغيوم مائلة الى الأرض كسلم ذهبى هائل يتجه الى أعلى مؤديا الى عالم آخر ٠٠٠ وبينما كان الشاب واقفا هناك ينظر بدأت معجزة فى الحدوث ٠ وسوف يبطل العجب حالا مما لا يمكن تصديقه ٠٠٠ وأدرك أن روح أبيه المتطلعة الخالدة كالسماء كانت تتسلق ذلك السلم الذهبى الذى يشبه كثيرا حبال صارى سفينة هائلة يوجد نجم فى أعلى صواريها ٠

وهمس دييجو فى أسى : « أبى ، آه ياأبى » ٠

مؤسسة طباعة الألوان المتحدة
٨ شارع المرحومى - مصر القديمة - القاهرة
ت. ٣٢٥٠٧

هـــذا الكتـــاب

يضم هـــذا الكتاب قصـــة طويلة من قصص البطولة ، فيها سحر للخيال ، وفيها غذاء للعقل ، وفيها مدد للعزيمة ، وفيها القيم الرفيعة ، وفيها من التاريخ الدرس والعبرة ، فهل هناك درس أوفى وعبرة أنفع من رجل يرحل فى حياته أربع رحلات يقطع بها المحيط الأطلسى ذهابا وجيئة يعود بعد كل واحدة منها بالكشف الجديد فيكون مصيره ذات مرة على يدى حاكم جاهل مغرور أن يزج به فى السـجن وأن توضع فى يديه الأغلال ، كأنما هـــذا العظيم سفاح للدماء ؟؟ فمن ذا — من أصحاب المواهب — لا يتعلم أن يخدم موهبته ويخلص لها ، مهما لقى فى سبيل ذلك من عنت معاصريه ؟

ترى ماذا كانت صورة الحضارة اليوم لتكون لو لم يكن — ذات يوم — رجل بين الرجال اسمه كريستوفر كولمبس ، وقد أرقت جنبيه فكرة عدها العقلاء عندئذ فكرة مجنـــونة ، وعدها العاطفون على الرجل حلما كالذى يراه فى نومهم الحالمون ، لكننا نكتفى ها هنا بالقول بأن ذلك كله قد أراده الله نتيجة لفكرة أرقت صاحبها أعواما ولقيت من أولى الأمر هنا صدا ، وهناك سخرية ، وتلك هى الفكرة التى دفعت صاحبها الى عبور المحيـــط الأطلسى لأ[illegible]
الوصول الى الشرق عن طريق السير غربا ، مادامت
فاذا الغطاء ينكشف عن الأمريكتين !

من
الدكتور ز[illegible]



الثمن ٣٠ قرشا سنة ١٩٦٣